

فراشة الأميرة الحمراء

رسم : حلمى التونى

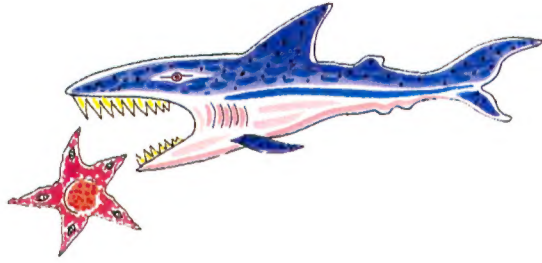
تأليف : نبيل خلف



دار الشروق



فراشة الأميرة الحمراء



رواية علمية تهتم بالبيئة للأذكاء من الفتيان والفتيات
(من ١٠ إلى ١٦ سنة)

دارالشروق

فراشة الأميرة الحمراء

رسم: حلمى التونى تأليف: نبيل خلف



دار الشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيديو المصطفى - رابعة العنوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)
رقم الإيداع ٩٨/١٠٠٥٨
الترقيم الدولي 3 - 0478 - 09 - 977
طبع بمطابع الشروق - القاهرة

إهداء

إلى أبي

الذي لا يزال طفلاً ولم ألتقِ به حتى الآن

الفراشة الملكة



استيقظت رنا من النوم . فركت عينيها ؛ ثم جلست القُرْفُصَاء على سريرها ، وراحت تتأمل شعاعاً من نور الصباح يتسلل من شَقِّ صغير في النافذة المغلقة ؛ وينساب بين أصابع قدميها . نظرت بضيق إلى زِيَّها المدرسي المعلق على المشَجَب ، وحين همَّت بارتدائه تذكرت أن اليوم عطلة ؛ فشبهت من الفرح ، وألقت به على السرير بإهمال ، وهمست قائلة :

« لقد تلقينا وعداً من أمنا بالتنزه اليوم على شاطئ البحر » .

نظرت نحو سرير أخيها وائل ؛ فرأته يطوِّح ذراعيه كأنه يطير ، ويضمُّ شفتيه كرضيع يمتص ثدي أمه . أسرع رنا نحو أخيها ، وهزته من كتفيه برفق ، فنهض من نومه ، وحدَّق في وجهها بعينين زائغتين ، وقال لها :

« لقد حلمت بأنني فراشة ترفرف حول زهرة تتلألأ أوراقها البيضاء مثل النجوم ؛ سألتها عن اسمها ؛ فقالت إنها زهرة اللؤلؤ . . . مددت خُرطومِي لكي أرتشف رحيقها ؛ قبل أن تغلق تُوجِّهها لتنام عند غروب الشمس ؛ ففوجئت بمئات من الخفافيش السوداء تصدر نعيماً كثيلاً ، وتضربني بأذنانها ، وتمدُّ ألسنتها الطويلة المستديرة في تُوجِّج الزهرة وتلعق رحيقها . أسرع بالفرار ، واحتميت بشجرة عملاقة ذات لون أصهب وأوراق صغيرة ، وظللت أقرب الزهرة بحسرة . . . كانت كلما أغلقت تُوجِّهها لتنام فتحت الخفافيش بأسنانها الحادة قسراً . أصدرت زهرة اللؤلؤ أنيناً خافتاً وانشالت الدموع من عينيها . وتضرعت إلى الشجرة العملاقة لتدود عنها ؛ فمدت فروعها ، وأمسكت بالخفافيش السوداء ، وألقت بها في الفضاء .

طرت نحو الزهرة لأمتص ما تبقى بها من رحيق ؛ ففتحت تُوجِّهها طواعية ، وشعَّ وجهها بالضياء ؛ لكنني تجرَّعت حسرتي إذ لم أجد إلا بضع قطرات من ماء مشبعة بالغبار .

نظرت بأسى إلى الشجرة العملاقة الصهباء ؛ فهالني شعاع شمس يرتقالي ينساب بين وريقاتها الصغيرة ، وتنزل على فراشة مبرقشة ؛ توميء إليَّ أن أتبعها . طرت خلفها حتى هبطت في غابة من زهور اللؤلؤ ؛ كل زهرة فيها تشبه الزهرة التي امتصَّ الخفافيش رحيقها . وكانت الزهور تفيض بالرحيق حتى كاد ينسكب حولها ؛ فأسرعت بارتشافه ، وأحسست بنشوة لم أعرفها من قبل . »

لم تشأ رنا أن تخبر وائل بأنها مرت بحلم مماثل أمس ؛ فلقد حلمت بأنها فراشة بلا جناحين تغرق في مستنقع ضحل ، وتتشللها من الماء الآسن فراشة ماثلة لتلك التي رآها وائل في حلمه . لكنها أحجمت عن الكلام ؛ لأن في ذلك ما يخالف اقتناعها بأن النوم الحقيقي هو نوم بلا أحلام ؛ مثلما أخبرتها أمها !

ساد الصمت بينهما لحظة . و قطعت رنا قائلة :

« فلنوقظُ أمنا ؛ لنذهب إلى شاطئ البحر » .

ارتدى الأخوان ملابس البحر ، وأحضرا القارب المطاطي والنظارات المائية وجميع أدوات البحر الأخرى ، وذهبا إلى غرفة نوم أمهما ؛ فلم يجدا إلا سريرًا خاليًا مرتبًا باردًا ، وكوبًا تعلق به قطرات من اللبن المتخثر . جمد الإحباط أقدامهما ، وتلفتا حولهما عليهما يجدان رسالة اعتذار توضح لهما الأمر . لكنهما لم يجدا شيئًا يهدى روعهما .

هرؤلت رنا نحو غرفة أمها التي تستخدمها كمعمل لأبحاثها في علم النبات . انتابها شعور عارم بالضيق عندمات رأت براعم وجذور القرنفل في أنابيب الاختبار تتلوى كالديدان في المحلول الكيماوي ؛ كأنها تحاول التسلق على جذرانها الملساء ؛ لتفلت من هذا السجن الزجاجي .

سمعت صرير الباب فالتفتت خلفها لترى وائل مقبلًا نحوها مقطب الجبين ويبدو عليه الاكتئاب . قالت له بلهفة :

« هل عثرت على أمي ؟ » .

أجاب وائل وقد دمعت عيناه :

« لقد بحثت عنها في كل ركن من المنزل ؛ ولم أجد لها أثرًا » .

صرخت رنا قائلة :

« منذ أن رحل أبي إلى البحار البعيدة وأمي تحث في وعودها من دون أن تقدم تفسيراً أو مبرراً لذلك » .

رمق وائل أوراق الشجر الذابلة والمتناثرة على المناضد الخشبية ، وانفتح أنفه تلقائياً واستنشق الرائحة النفاذة للمحاليل الكيماوية ؛ فانتابته نوبة حادة من السعال ، وأسرع بفتح النافذة ؛ ليستنشق هواء نقيًا .

فإذا بفراشة برتقالية مخططة بالأسود تبسط جناحيها وتطويهما ، وترفرف حوله . هملق وائل بإعجاب إلى جناحيها المزركشين بألاف الحراشف الملونة التي أسدلت ظلالاً حمراء وبرتقالية وبنفسجية على الجدران البيضاء ؛ وقال :

« إنها الفراشة التي رأيته في الحلم ! » .

وهمست رنا بصوت يكاد يكون هسيسًا :

« إنها الفراشة الملكة التي انتشلتني من المستنقع ! » .

ابتسمت لهما الفراشة الملكة كأنها نجُم يومض في سحابة دكناء ؛ وقالت :

« لقد أخبرتني فراشات الأحلام بحلميكما اللذن مررتما بهما أمس ؛ فهل ترحلان معي إلى بحيرة الأحلام ؛ حتي أحقق لكما كل ما تشتهيان من أحلام » .

نظر وائل إلى رنا ، وقال مندهشًا :

« لم أحجمت عن ذكر حلمك لي ؟ » .

تجاهلته رنا ، وقالت للفراشة الملكة بغضب واستنكار :

« كيف نرحل معك قبل أن نعثر على أمنا ؟ » .

اهتزت الفراشة الملكة لنبرات صوتها الحادة ووجهها الغاضب ، وطارت نحو أنابيب الاختبار ؛ حتى أوشكت أن تنزلق على حوافها المصقولة ؛ لولا أن التقطها وائل في اللحظة الأخيرة ، ووضعها برفق على كفّه .

همست الفراشة الملكة في أذن وائل :

« سوف ترى أمك في بحيرة الأحلام في الوقت المناسب . وكل شيء بأوان » .

- سوف أرحل معك حتى ألقاها ؛ لقد اشتقت إليها كثيرًا !

زمت رنا شفتيها وقالت متأسية :

« كيف تتركني بمفردي في هذا البيت الفسيح ؟ » .

قرض وائل أظافره وقال لأخته :

« لا بد من أن أرحل . ويبدو أن أوان رحيلك إلى بحيرة الأحلام لم يأت بعد » .

قبل وائل أخته رنا في خديها ، وتسلق الخيوط البرتقالية التي أرسلتها الشمس عبر النافذة ؛ إلى أن هبط على إحدى الجزر في أرخبيل الفراشات .



بحيرة الأحلام



رأى وائل قوقعًا يخرج من صدفته التي كان ينام فيها طوال الشتاء ، ويزحف إلى الأمام على حافة قدمه مثل مركبة الجليد ، ويطفيء ظمأه من الحشائش المشبعة بهاء المطر ؛ فعرف أن الربيع قد جاء .

ورأى أيضًا براعم الصَّفصاف والْحُور والياسمين والدُّردار تطير فوق بحيرة الأحلام – بعضها بأجنحة والبعض الآخر بمظلات ريشية الشكل – وترسو على أرخبيل الفراشات .

واعترته الدهشة حينما استقرت كل منها في الموضع الذي اختارته بإرادتها ، وأصبحت في لمح البصر أشجارًا وزهورًا وأعشابًا خضراء .

جلس وائل القُرْقُصاء على الأعشاب المخملية في إحدى الجزر التي تنتمي إلى أرخبيل الفراشات ؛ منتظرًا قدوم الفراشة الملكة ؛ كي تعطيه الإذن بالدخول إلى مملكة الأحلام .

واجتاحه قلق عارم ؛ فقد تذكر أنه ترك أخته الصغيرة رنا بمفردها ، وهما لم يفتقا من قبل ؛ فكيف يقترف هذا الخطأ ويرحل بدونها . انحدرت دمعتان من مقلتيه ، وأجهش بالبكاء ؛ إلا إنه كفّ عن ذلك عندما أبصر الفراشة الملكة تحلّق فوق الأشجار ، وتنزل ببطء على زهرة اللؤلؤ ، وتحّدق إلى وجهه ؛ فهو يكره كثيرًا أن يراه أحد باكيًا . مسح وائل تجويفي عينيه بأصابعه ، وراح يتأمل الأجنحة المزركشة لفراشات الأحلام التي ترفرف حول الفراشة الملكة مرحبة بقدومها .

قالت الفراشة الملكة وهي تتفحص وجهه :

« الناس أحرار في مملكة الأحلام وحدها ؛ لأنهم يختارون أحلامهم بإرادتهم ، ويسعون إلى تحقيقها . ورنالمتحرر بعد من عبوديتها لسلطان العقل المتزمت ، وسوف تلحق بك وقت أن تستعيد إرادتها السليبية ، وقدرتها على التفكير الحر والمبدع » .

اندهش وائل من قدرة الفراشة الملكة على تحليل الأمور والكشف عما يجول بخاطره ؛ وقال لها :

« لقد جئت هنا بإرادتي ، ولن أراجع أبدًا عن تحقيق حلمي بلقاء أُمي » .

أحسّت زهرة اللؤلؤ برنين هذه الكلمات يبعث الدفء في وريقاتها ، وينشر عصارة النّشوة في جذورها ، وشعرت بأن وائلا أصبح رجلاً ، وكادت تخبره بأنها أمه ؛ وقد رحلت إلى بحيرة الأحلام ، وحققت حلمها بأن

تكون زهرة اللؤلؤ . لكنها لُزمت الصمت ؛ لكيلا تخرق دستور مملكة الأحلام ، ويفقد وائل فرصته في تحقيق حلمه .

بدأت الفراشة الملكة طقوس الاحتفال ، وأومأت بجناحيها إلى فراشات الأحلام ؛ فطارت نحو ينبوع الماء العذب المتفجر في بحيرة الأحلام ، وملأت قنينة صغيرة وأعطتها لوائل الذي عبَّها من الفور ؛ حتى شَرِقَ ، وخيل إليه أنه شرب نهراً من الشهد حتى آخر قطرة فيه .

حطَّت الفراشة الملكة على كَتِفِهِ وقالت له :

« لمملكة الأحلام دستور وعادات وتقاليد . وأول مادة في الدستور هي أن تختار حلماً ملائماً ومشروعاً ؛ حتى نسمح لك بالدخول إلى المملكة . فهل اخترت حلمك ؟ » .

رنا وائل إلى زهرة اللؤلؤ التي كانت ترقبه طوال الوقت ، وتعجَّب حين رأى الرحيق يتفجر من ثَوْبِجِها ويندفع نحو فمه المفتوح من الدهشة في دَفَعَات متتالية ، وازداد تعجبه لما مدَّت بَنَلَاتِها نحوه كذراعين مخمليتين تتوقان لاحتضانه اندفع نحوها بشكل لا إرادي ؛ فاحتضنته وقالت له :

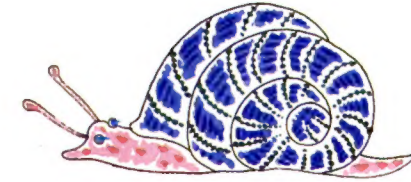
« إياك أن تختار حلماً يقصيك عني ! فأنا لا أريد أن أفترق عنك أبداً » .

نظرت إليها الفراشة الملكة شَذْراً ، وقالت لها بغضب :

« إذا أفصحت عن أسرارنا فسوف نعيده في الحال إلى مملكة الواقع . دعيه وشأنه ، حتى يختار حلمه بدون تدخل من أحد » .

ارتعبت زهرة اللؤلؤ من هذا التحذير ، وانكمشت وريقاتها ؛ لكنها لم تدرك أن كلماتها كان لها تأثير السحر على عقل وائل الذي استغرق في تفكير عميق ، وراح يفتش في خياله عن حلم يجعله قريباً إلى زهرة اللؤلؤ ولصيقاً بها . لحس شفثيه ، وتذوق قطرات الرحيق التي تدفقت من ثَوْبِجِها قبل لحظات فاتخذ قراراً حاسماً وصرخ قائلاً :

« أريد أن أصبح فراشة » .



الفراشة الخفاش

اندفعت الفراشة الخفاش وسط فراشات الأحلام التي التفتت حول وائل تشارك في طقوس الاحتفال به في مملكة الأحلام ؛ وقالت بصوت يشبه النعيب المتقطع :

« أرفض أن يدخل هذا المخلوق الآدمي مملكة الفراشات ؛ لأنه من آكلي اللحوم » .

تفرَّس وائل وجهها الذي يشبه وجه خفاش ؛ فارتعش من الرعب ! مدَّت خُرطومها الذي يشبه منقار صقر نحو عينيه ؛ فتراجع إلى الوراء ؛ وقبل أن يسقط على زهرة اللؤلؤ استعاد توازنه ، واحتضنته الزهرة ببَنَلَاتِها ، ومسحت العرق المنساب على جبهته بوريقاتها ، وحاولت أن تبدو متماسكة ؛ برغم امتقاع وجهها وخفقات قلبها ، والتفتت نحو الفراشة الخفاش ، وقالت لها بغضب وتحد :

« نحن في مملكة الأحلام لا نستطيع أن نرفض حلماً لإنسان أو حيوان أو طير أو نبات ؛ لأن ذلك يعد مخالفاً لدستورنا » .

رَبَّت الفراشة الملكة بصرها إلى الفراشة الخفاش التي كانت تنتفض من الغيظ والكمَد . تتابعت في مخيلتها الصُّور ؛ منذ أن جاءها ذات يوم خفاش بشع الخلقه يشكو إليها من أنه لا يجد طيراً يؤنسه ، ولا شجرة تأويه ، ولا زهرة ترحب به ، ولا عُشّاً يستلقي عليه ، وأن جميع المخلوقات في هذا العالم تمجُّه وتزدرية ؛ إلى أن رَقَّ قلبها له ، وساعدته في تحقيق حلمه ؛ حتى أصبح فراشة . لكنها لم تكن فراشة كبقية الفراشات ؛ فهي لم تتخلَّ عن أنانيتها الموروثة ، ورغبتها الجارفة في التملك ، وكانت تسلل ليلاً — قبل أن تستيقظ رفاقها — وتمتص رحيق الزهور بنهم ؛ حتى تصاب بالتخمة ؛ ثم تعبىء ما تبقى في قنينات صغيرة وتخبئها في مَخْئِ سَرِّي في تجويف إحدى الشجيرات ؛ واستمرت في هذا السلوك الشائن ؛ حتى كادت تُهلِكَ الفراشات الأخريات من الجوع ؛ فأصدرت هي قراراً بتكثيف دوريات الحراسة الليلية ؛ فافتضح أمر الفراشة الخفاش ، وصودرت قنينات الرحيق التي كانت تخبئها ، وحكمت عليها محكمة الفراشات بالنفي من الأَرَحِيل مدة أسبوع كامل ؛ لعلها تتطهر من آثامها وتفيق من غَفْوتها ؛ لكنها بعد أن عادت من المنفى كادت تفسد طقوس الاحتفال بعالم النباتات التي حلمت بأن تكون زهرة اللؤلؤ ، وأوعزت إلى الفراشات بأن تطالب بسنَّ قانون يمنع المتطفلين من بني البشر من الدخول إلى مملكة الأحلام ، ولم ينصت أحد إليها ؛ لأن الفراشات تعلم أن الدستور في مملكة الأحلام سَرْمَدِي ولا يمكن تغييره . . .

أشاحت الفراشة الملكة ، بأجنحتها وكفّت عن استرجاع هذه الذكريات التي تبعث علي الكآبة ؛ إذ كان وائل منخرطاً في بكاء مريّر بينما الفراشة الخفّاش تسرّ في أذنه بسرّ الجبلين اللذين يبرزان فوق سطح الماء في بحيرة الأحلام : جبل السّمندل الأحمر الذي يجعل من يلمس جسده يكاد يُجنّ من الضحك ، وجبل الخفافيش التي تجعل من يستمع صراخها وعويلها المتصاعد يستغرق في نوبة هستيرية من البكاء .

أغلق وائل أذنيه بكلتا يديه ؛ لئلا يستمع إلى المزيد من هذا الكلام المخيف ، وجرى نحو شجرة الحور التي تصد الرياح عن الجزيرة . مدّت إليه الشجرة فروعها واحتضنته وربّت على شعره بأوراقها التي تشبه القلوب ، لتهدىء روعه وقالت له :

« لا تنتحب يا ولدي وكُن رجلاً ! فالفراشة الخفّاش تريد أن تبث الرعب في قلبك . وثق بأن الفراشة الملكة لن تسمح لها بأن تفسد حلمك » .

ترددت الفراشة الملكة كثيراً قبل أن تحسم أمرها ، وتصدر قراراً باعتقال الفراشة الخفّاش ؛ فهي لم تلجأ من قبل إلى حرمان فراشة من حريتها ، وكانت تكره السجون التي عانت من ذلها قبل أن تأتي إلي مملكة الأحلام ؛ لكنها لم تجد وسيلة أخرى لوقف الفراشة الخفّاش التي تعيثُ فساداً في المملكة . كما كانت الفراشة الملكة تعلم أنها إن كفّت عن أداء مهمتها المقدسة في تحقيق الأحلام لجميع الكائنات الحيّة التي تأتي إلى الأرخبيل ؛ فإنها ستموت من الغور ، وستذروها الريح مثل ورقة شجر يابسة .

أمرت الفراشة الملكة النمل النّسّاج بإعداد سجن صغير من الكرتون به ثقب للتهوية ، وامثل النمل لأمر مليكته وأعدّ السجن الكرتوني في لحظات ؛ ثم زحفت بضعة آلاف من النملات العاملات نحو الفراشة الخفّاش ، وألقت بها في السجن الكرتوني . صرخت الفراشة الخفّاش ، وراحت تلطم بأجنحتها صفائح الكرتون ؛ حتى كادت تتكسر ، وحملت إلى وائل عبر ثقب التهوية وقالت له :

« لن أكف عن ملاحقتك أينما ذهبت ، ولن أسمح لك بتحقيق حلمك » .

سدّت الفراشة الملكة ثقب التهوية بأجنحتها البرتقالية ؛ وقالت لوائل :

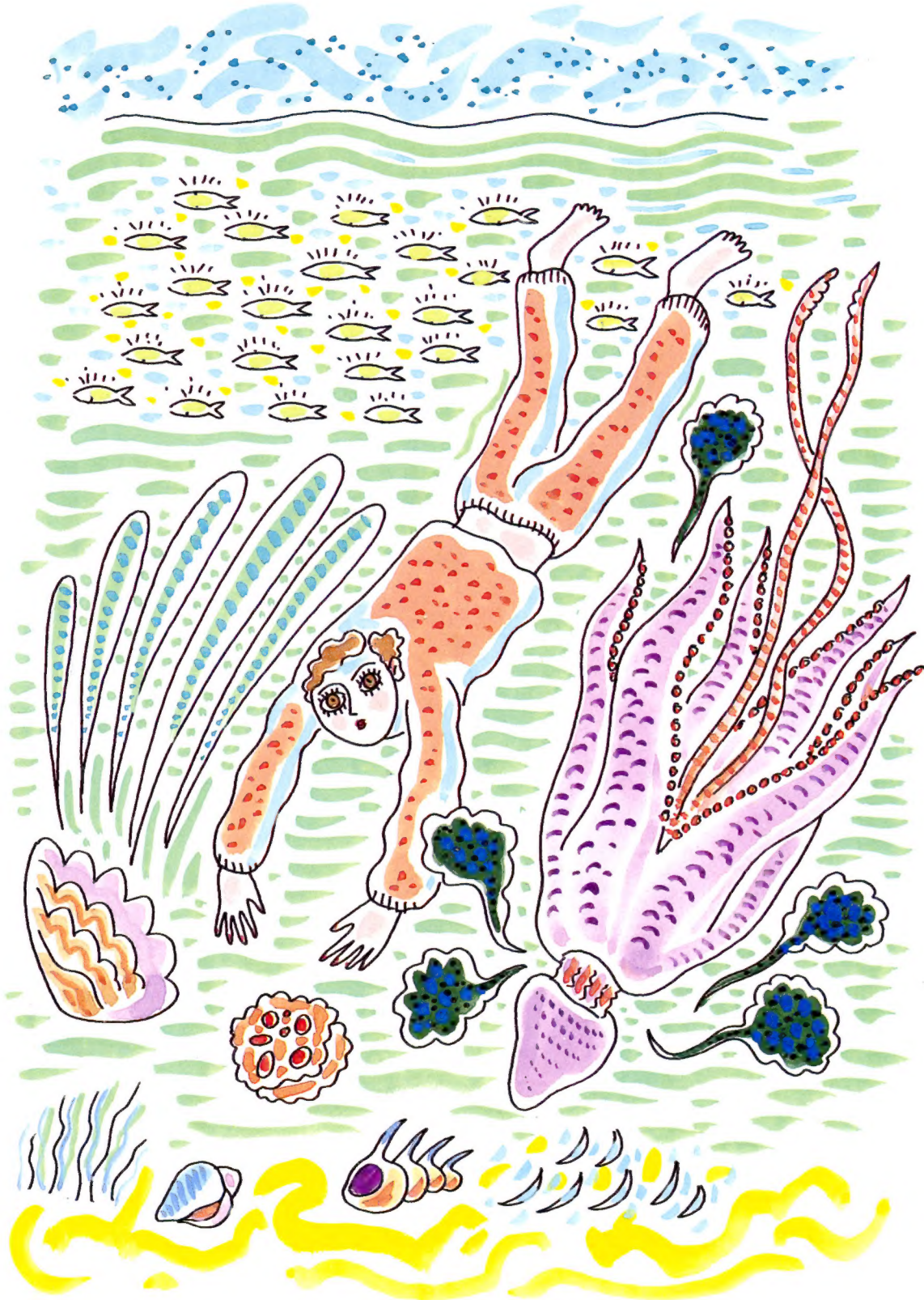
« انطلق الآن نحو بحيرة الأحلام ، ولا تجعل الخوف يثبط عزيمتك ، وعليك أن تتحين اللحظة الملائمة بعد أن يصعد طاووس البحر بين الجبلين ؛ وتنتزع من زعانفه الطحالب الحمراء ، وتخبّص بها جسدك . ولا بد من أن تعلم أنك إن فشلت في تحقيق حلمك فسأموت أنا » .

نظر وائل إلى شجرة الحور ؛ فأشارت إليه بفروعها نحو البحيرة ، ولوّحت إليه زهرة اللؤلؤ بأوراقها البيضاء ؛ حتى تبثّ الشجاعة في قلبه ، ورفعت الأعشاب المخملية أعناقها وتشكلت على هيئة سهام خضراء تشير نحو بحيرة الأحلام .

صعد وائل إحدى الصخور ، وتأمل جسده الذي يتصبّب عرقاً ؛ ثم قفز في الماء .



عسكري البحر



ضاعت الصّدفَة التي يسكن فيها عسكري البحر ، وأصبحت لا تلائم جسده ؛ بعد أن كبر وصار صبيّاً يافعاً .

أعياه البحث في قاع البحر عن صدفَة أخرى ملائمة بدون جدوى ؛ فصعد إلى السطح يائساً ، وتأمّل بطنه الرخوة بأسف ، وندب حظه العاثر ؛ لأن طاووس البحر سيصعد بعد قليل ويلتهمه ضمن آلاف الحيوانات البحريّة الصغيرة ، وأحسّ بأنه مخلوق تافه لا يستطيع الدّود عن حياته . رأى السرطان الراكض يعدو بين الصخور ؛ فاستوقفه مستجدياً طالباً المساعدة في البحث عن صدفَة ؛ لكنه تجاهله ، واستلقى على إحدى الصخور يستمتع بدفء الشمس ، ولم يعره التفاتاً .

سيطر الشعور بالإحباط على عسكري البحر ، وتذكر الأيام الغابرة ؛ أيام كان فراشة المحارة ولم يقنع بمصيره ، وأراد أن يكون له وضع مميز وكلمة نافذة ، وأن يصبح كائنًا بحريّاً مهيباً تحشى بأسه الكائنات الحيّة كلها . وتساءل كيف يكون مجرد فراشة ضمن آلاف الفراشات التي تخضع لإرادة الفراشة الملكة وتنصاع لأوامرها ؛ بعد أن خدعته الفراشة الخفاش ، وداعبت خياله ، وشكلت له صورة خرافية عن عسكري البحر الذي يفوق الحوت الأزرق قوة وضراوة . وتذكر يوم جازف بانتزاع الطحالب الحمراء من بين الزعانف السامة لطاووس البحر ؛ ليخضّب بها جسده ، ويحقق حلمه ، معرضاً نفسه للهلاك . وشعر بالأسف ! فهأجى الأقدار تسخر منه الآن بعد أن أصبح كائنًا بحريّاً ضئيلاً لا حول له ولا قوة .

أفاق من غفوة الذكريات على صرخة حادة تنبعث من بلحة البحر التي كانت تحاول الفرار من نجم البحر؛ وقد كان يطاردها بإلحاح ؛ ليفتح مصراعَي صدفتها ، ويذيب لحمها ويمتصّه . واعتزت عسكري البحر دهشة بالغة حينما صعدت المحارة المروحة من قاع البحر ، وفتحت صدفتها وأطبقتها بقوة وقذفت الماء على العيون الخمس المنبثقة من أذرع نجم البحر الذي اضطرب ، وراح يتخبط في الماء يَمْنَة وَيَسْرَة حتى أوشك على الارتطام بإحدى الصخور .

انتهزت بلحة البحر الفرصة ولادّت بالفرار .

واختبأ عسكري البحر بين حزمة من الأعشاب ، وتساءل في قرارة نفسه :

« عجباً ! لم أر من قبل كائنًا بحريّاً يغامر بحياته من أجل رفيق له . لا شك في أن المحارة المروحة تتمتع

بقدر هائل من السذاجة حتي تفعل ذلك ؛ فكل كائن بحريّ في هذا الخِصَم الرهيب لا سبيل أمامه إلا أن ينجو بنفسه وحسب » .

غاص عسكري البحر في القاع مرة أخرى ؛ علّه ينال مأربه ، ويعثر على صدفة لأحد الحلازين الميتة . لكنه بذل جهدًا كبيرًا في البحث والتنقيب والنش بمقابضه في الطين اللزج ؛ ولم يجد صدفة تناسب جسده ؛ فصعد إلى السطح باكيًا مستسلمًا لمصيره المحتوم . ولما رأى وائلًا يسبح نحوه ؛ تجدد أمله في النجاة .

اعترض عسكري البحر طريق وائل ، وقال له بتوسل :

« أراك متعجلًا ؛ لكنني في حاجة ماسة إلى صدفة أحتمي بها من طاووس البحر » .

تأمل وائل شكله الذي يشبه الجمبري ، وقال له :

« لا وقت لديّ أبدده في البحث عن صدفة تلائم جسدك الهزيل » .

قال عسكري البحر بصوت متهدج :

« امض في طريقك - إن شئت - ولست غاضبًا منك ؛ فأنا أستحق هذا المصير . لكنني أطلب إليك معروفًا قبل أن أموت » .

قال وائل بلهفة :

« اطلب ما شئت » .

- اقتلني بيديك !! -

صرخ وائل في وجهه من هول المفاجأة :

« كيف تطلب إليّ ذلك ؟ ! أنا لست سفاحًا » .

أراد عسكري البحر أن يستغل شعور وائل بالتعاطف نحوه ؛ وقد تبين له أنه قد بدأ في النمو داخله ؛ فتصنع البكاء قائلاً :

« أنا ميّت لا محالة . . . والموت بيديك الرقيقتين أفضل من الموت بيدي طاووس البحر الذي سيمزقني إربًا قبل أن يفترسني » .

اغرورقت عيناه وائل ، وقرر أن يغوص في القاع ؛ ليجث له عن صدفة ملائمة ؛ وإن أدى ذلك إلى ضياع حلمه هذا العام .

اقترب وائل من القاع المظلم البارد ، وفوجيء بالآلاف من المصابيح المضيئة تنتشر حوله ؛ فخفق قلبه من الخوف . كانت تلك المصابيح تنبعث من أجساد بعض السمكات التي تحتفل بعرس رفيقة لها . أحس وائل برغبة جارفة في التوقف قليلاً لمشاهدة هذا العرس الجميل ؛ بيد أنه قاوم رغبته بصعوبة بالغة ، واستمر في

البحث عن الصدفة . لم يجد إلا رقائق من الزجاج مقوسة أو محززة أو مجمدة تنتشر في طبقة شاسعة من الرماد الأبيض ، ولم يكن يعلم أن ذلك الرماد هو غبار النيازك والشهب التي تقذفها السماء في أعماق البحر .

دار ببصره حوله حتى وجد إحدى الجزر الغارقة التي تنتشر على سطحها مجموعة من القواقع الجيرية المتنوعة الأشكال ؛ فتهلّل فرحًا ، وسبح بسرعة نحو الجزيرة ؛ لكنه تجمد رعبًا عندما فوجيء بأسراب من الحبار تطلق سحبًا من الخبر الأسود ؛ لكي تغطي هروبها من أحد الحيتان الزرقاء العملاقة . انتظر وائل حتى انقشعت تلك السحب ، واقترب مرة أخرى من الجزيرة ، وكاد يُعشي عليه حين حدّق إلى وجهه حوت أزرق وحام حوله ؛ ثم مضى في طريقه بدون أن يمسه بسوء .

استفاق وائل من ذهوله ، والتقط أنفاسه وهو لا يصدق ما رآه .

ثم انتقى قوقعة جيرية مثقبة بثقوب دقيقة ومقسمة إلى عدة غرف ، وضحك في داخله قائلاً :

« إنها مثل فندق صغير مكيف الهواء . وسوف يفرح بها عسكري البحر كثيرًا » .

جمع وائل بعض الأصداف الأخرى حتى يعطيه فرصة للاختيار ، وبدأ رحلته في الصعود إلى سطح البحر وقلبه يرقص بين ضلوعه من الفرح .



نَجْمُ الْبَحْرِ

وَلَوْلَ عَسْكَرِي الْبَحْرِ عِنْدَمَا جَرَفَت الْأَمْوَاجُ ثُرُوتَهُ مِنَ الْأَصْدَافِ الَّتِي كَانَ يُخْبِئُهَا وَسَطَ حَزْمَةٍ مِنَ الْأَعْشَابِ فِي إِحْدَى الْجُزُرِ ؛ لَيْسْتَغْلَهَا فِي الْمَسَاوِمَةِ مَعَ نَجْمِ الْبَحْرِ ذِي الْعَيُونِ الْحُمْرَاءِ الَّتِي تَبَثُّ فِي قَلْبِهِ الرَّعْبَ حَتَّى يَأْمَنَ شَرَّهُ ، أَوْ يَقَايِضُهَا بِغَدَاءٍ شَهِيٍّ مَعَ بَلَحِ الْبَحْرِ أَوْ الْكَوَعَلِ أَوْ الْحَلَزُونِ .

أَرَادَتْ بَعْضُ الْقَوَاقِعِ أَنْ تَدَاعِبَهُ ؛ فَقَذَفَتْ بِبَعْضِ مُحَاطِهَا اللَّزْجِ عَلَى مُحَارَتِهِ الْجَدِيدَةِ ، وَكَادَتْ تَسَدُّ ثُقُوبَهَا ؛ فَاَنْطَلَقَ خَلْفُهَا شَاهِرًا مَقَابِضُهُ وَهُوَ يَزَارُ مِنَ الْغَضَبِ ؛ لَكِنِّهَا أَسْرَعَتْ بِالْفِرَارِ قَبْلَ أَنْ يَلْحَقَ بِهَا . غَطَسَ عَسْكَرِي الْبَحْرِ فِي الْمَاءِ حَتَّى يَنْظِفَ مُحَارَتَهُ مِنَ الْمَخَاطِ ، وَصَعِدَ وَهُوَ يَكَادُ يَنْفَجِرُ مِنَ الْغَيْظِ وَالْكَمَدِ .

مَرَّرَ طَحْلِبُ خَسِّ الْبَحْرِ سَعْفَهُ الْمُمَوَّجَ الْحَوَافَّ عَلَى وَجْهِه وَائِلَ الَّذِي نَهَضَ مُتَشَاوِلًا ؛ فَإِذَا بِمُحَارَةٍ بِلَحَةِ الْبَحْرِ تَحْلَعُ صَدَفَتِهَا الْمُتَهَرِّثَةَ ، وَتَرْتَدِي صَدْفَةً بِمِصْرَاعَيْنِ مَلَائِمَةً تَمَامًا لْجِسْدِهَا الَّذِي يَشْبَهُ جِسْدَ أَوْزَةٍ قَزَمَ ، ثُمَّ تَنْظُرُ بَزْهًا إِلَى مُحَارَتِهَا الْجَدِيدَةِ ، وَتَفْتَحُهَا بِحَذَرٍ ؛ لِتَأْكُلَ بَعْضَ الْعَوَالِقِ .

انْتَهَزَ عَسْكَرِي الْبَحْرِ الْفُرْصَةَ وَانْقَضَ عَلَى مُحَارَةٍ بِلَحِ الْبَحْرِ بِمَقَابِضِهِ مُحَاوِلًا فَتْحَ مِصْرَاعِي صَدَفَتِهَا ؛ لَكِنِّهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَطْوِيَهَا كِغْلَافٍ كِتَابٍ مُحْكَمٍ عَلَى حَافَةِ الصَّخْرَةِ الَّتِي يَنَامُ عَلَيْهَا وَائِلَ . طَافَ حَوْلَهَا عَسْكَرِي الْبَحْرِ ، وَقَالَ لَهَا مَهْدَدًا :

« مَا لَمْ تَعْطِينِي صَدَفَتِي آيْتَهَا اللَّصَّةَ الْمَاكِرَةَ فَسَوْفَ أَجْعَلُ نَجْمَ الْبَحْرِ يَمْتَصُّ لَحْمَكَ » .

لَمْ يَصْدُقْ وَائِلَ مَا رَأَاهُ بَعِينِيهِ ، وَسَيَطِرُ عَلَيْهِ شَعُورٌ قَوِيٌّ بِخِيَةِ الْأَمَلِ ؛ فَهُوَ لَمْ يَتَخِيلْ أَبَدًا أَنَّ عَسْكَرِي الْبَحْرِ - الَّذِي جَاوَزَ هُوَ بِحَيَاتِهِ مِنْ أَجَلِهِ - شَرَسَ وَأَنَانَى إِلَى هَذَا الْحَدِّ .

اقْتَرَبَ وَائِلَ مِنْ حَافَةِ الصَّخْرَةِ ، وَرَمَقَ عَسْكَرِي الْبَحْرِ بِغَضَبٍ وَالتَّقَطُّهُ بِعَنْفٍ حَتَّى كَادَ يَعْتَصِرُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ :

« لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَاكَ مَرَّةً أُخْرَى فِي بَحِيرَةِ الْأَحْلَامِ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ مِنْ أَجْلِكَ » .

ثُمَّ قَذَفَ بِهِ إِلَى الْمَاءِ .

جَلَسَ وَائِلَ عَلَى الصَّخْرَةِ يَتَأَمَّلُ الْجُرُوحَ الَّتِي أَحْدَثَهَا عَسْكَرِي الْبَحْرِ فِي الْجِسْدِ النَّحِيلِ لِبِلَحَةِ الْبَحْرِ ؛ وَكَانَتْ قَدْ تَشَبَّثَتْ بِالصَّخْرَةِ ، وَرَاحَتْ تَصْدُرُ أُنِينًا خَافِتًا . وَلَمْ يَكُنْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَسْكَرِي الْبَحْرِ مَا زَالَ

متربصًا بين الأعشاب وقد صوب بصره إلى المحارة الجريحة ؛ يتأجج صدره حقدًا وغضبًا ، ويتحين الفرصة الملائمة للانتقام منها ؛ ومن وائل الذي حال بينه وبينها .

أوجس عسكري البحر :

سوف أنال منك أيُّها الولد المغرور - بعد أن أحقق ما أحلم به وأصبح كائنًا بحريًّا عملاقًا .

راودت عسكري البحر فكرة شريرة عندما رأى نَجْم البحر يقترب منه رويداً رويداً ليفترسه .

أراد أن يستفزه حتى يتبعه ؛ فأحدث جلبة وضوضاء ، وطرطش الماء في وجهه ، وأطلق صرخة حادة ؛ ثم دار حوله ، وسبح بسرعة نحو بلحة البحر . طارده نَجْم البحر وقد جُنَّ من الغضب . اقترب عسكري البحر من بلحة البحر ؛ وعندئذ أسرع بالفرار والاختباء بين كومة من الأعشاب ، وقهقهه ضاحكاً لما ترامت إلى سمعه صرخات بلحة البحر التي انقض عليها نَجْم البحر ، وثبَّت أذرعهُ الخمس حول مصراعِي صَدَفَتِها ، وأخذ يشدهما بأقصى ما يملك من قوة إلى أن انفتحا ؛ ودفع معدته داخل محاربتها حتى استطاع أن يذيب لحمها ، ويمتصّه بشراهة .

لم يستطع وائل أن يحتمل ما رآه . أدام النظر في العيون الخمس الحمراء لنَجْم البحر التي تنبثق من أذرعهِ ؛ فأحس بالدُّوار ، وسقط مَغْشِيًّا عليه ، وظل راقداً على الصخرة إلى صباح اليوم التالي .



القرش - الثعلب

انبلج الفجر ؛ وها هو طاووس البحر يصعد إلى سطح الماء ، ويلطم بأجنحته الملونة وجه البحر المضطرب ، ويشهر أشواكه السامة في وجه كل متطفل من الأسماك والكائنات البحرية ؛ وفي وجه كل من يحاول انتزاع الطحالب الحمراء من بين زعانفه .

فتح وائل عينيه عندما سمع رفيف الأجنحة لآلاف الفراشات التي غطت وجه السماء فوقه تماماً ؛ وألقت جواره أعشاباً تنبعث منها رائحة عطرة .

حطت الفراشة الملكة على كَتِفِهِ ، وهمست في أذنه :

« هذه الأعشاب تعطي من يتناولها طاقة احتمال غير عادية للغوص والبقاء تحت الماء . فلتتحين الفرصة الآن ، وتغطس تحت أجنحة الطاووس ، وتنتزع حزمة من الطحالب الحمراء من بين زعانفه السامة ؛ قبل أن يشرع في العبور بين جبل الخفافيش وجبل السَّمَنْدَل الأحمر » .

حدَّق وائل إلى طاووس البحر ، ولمَح حَبَّاراً جريئاً يقترب منه ويدور حوله دورتين ؛ لكنه لاذ بالفرار حين بسط الطاووس أجنحته ، وبدأ في أداء رقصته المقدسة ، وضرب الماء يعنف ؛ ممَّا أدى إلى تصاعد رمال القواقع والأصداف من قاع البحر ، وتناثرها على الشاطئ ثم هبوطها إلى أسفل في أقواس رشيقة ملونة .

خفق قلب وائل من الخوف لما رأى المحارات توصل فتحات أصدافها ، والسمة الأفعى التي اعتادت أن تبرز أسنانها - برغم انغلاق فكَّيها - تسرع بالاختباء بين سحب البحر السوداء التي أطلقها الحَبَّار ؛ ليغطي انسحابه .

تصبَّب وجهه عرقاً ، وسيطر القلق على مشاعره ، والتفت نحو الفراشة الملكة ، وقال متلعثماً :

« هل تسدين إليَّ صنيعاً وتكلفين أحداً غيري بإحضار حزمة الطحالب الحمراء » .

قالت الفراشة الملكة بصوت ينتفض من الغضب :

« إنه حلمك أنت ؛ ولا يليق بي أن أكلف أحداً بتحقيق حلمك بينما أنت تغط في النوم على هذه الصخرة . وتذكَّر أنك لو فشلت في تحقيق مهمتك فسوف أموت وتندثر مملكة الأحلام من الوجود » .

لم يستطع وائل - وقد تملكه الخجل - أن يطيل النظر إلى عينيها اللتين توجهان اللوم إليه . وبشكل لا إرادي

تناول الأعشاب العطرية ، واقترب من حافة الصخرة ؛ ثم قفز في الماء ، وسبح نحو طاووس البحر .
ررفت الفراشة الملكة فوق بحيرة الأحلام ؛ وفجرت فمها من الدهشة ! كان عسكري البحر يسبح بقوة
صَوْب طاووس البحر ؛ وقد انتظر حتى استطاع وائل أن ينتزع حزمة الطحالب الحمراء ، ورشق مقابضه في
يده وفتحها عنوة ؛ واستولى على الطحالب ؛ وسبح بعيداً إلى إحدى الصخور ؛ وخَصَّب جسده بها .
شهقت الفراشة الملكة من الفزع ! فقد استحال عسكري البحر إلى سمكة قرش لها ذَنب بالغ الطول ووجه
ثعلب ، وفاضت عيناها بالدموع عندما شرع القرش - الثعلب يطارد وائلا بإصرار ، ويحاول أن يضربه بذنبه
الطويل .



الحُوت المُغَنِّي



لم يدرك وائل ما الذي جعل القرش - الثعلب يهرب مذعوراً ؛ وكان قد أوشك على افتراسه ؛ لكنه تبين حقيقة الأمر حينما ظهر على سطح الماء حوت مفتوح الفم ينشر شبكة من الفقاعات ، ويصيد بمهارة فائقة كميات هائلة من القشريات ؛ ثم يغطس في القاع .

سمع وائل أصواتاً رتيبة متكررة ؛ بدت له كخُوار البقر أحياناً ، وكصهيل الخيل أحياناً أخرى . أرهف السمع إلى تلك الأصوات ، واستطاع أن يميز مقاطع وجمالاً موسيقية تتكرر بأسلوب منتظم ، وغناء جماعياً يتخلله أحياناً صوت فردي قوي جميل . تذكّر آخر أغنية غنتها له أخته رنا وهما يمرحان على شاطئ البحر ، وبدت في مخيلته كعصفور يرفرف في الضباب وتضيع زرقته في ضوضاء مبهمة .

انخرط وائل في بكاء مرير عقب توقف الأغنية التي كانت تمتص إحباطه وتؤنسه في وحدته ، ولم يدر ماذا يفعل بعد أن سرق منه عسكري البحر حزمة الطحالب الحمراء ؛ ليستحيل بها إلى قرش - ثعلب .

شرعت الأصوات المنبعثة من قاع البحر في الغناء من جديد ؛ فأحس وائل بأن هذه الموسيقى تأتي من جميع أرجاء الكون : من بحيرة الأحلام ، ومن نجم يموت في الفضاء البعيد ، ومن زهور ذابلة تذروها الرياح ، ومن نحيب الفراشات في الأرخبيل .

انتفض جسد وائل من الحزن ، وقال لنفسه :

« يبدو أن الفراشة الملكة تُحتَضِر ؛ لأنني أخفقت في تحقيق حلمي » .

وعندئذ قرر ألا يستسلم للحزن ، وغطس في القاع مرة أخرى باحثاً عن طاووس البحر ؛ لينتزع من بين زعائفه حزمة أخرى من الطحالب الحمراء . شهق من الدهشة حين رأى حوتاً عملاقاً يفوق حجمه ثلاثين فيلاً - على الأقل - يشرع في الغناء ، ثم يسبح جوار أنثاه في صمت يدوم بضع دقائق ؛ يداعب في أنثائها وليده الذي كان يدور حول أمه لكي يرضع أشدائها ؛ يعود الحوت الأب بعدها إلى الغناء وقد فرغ صغيره من الرضاعة ، وبدأ في اللعب بجذع شجرة عملاقة ، يقذفه عاليًا حتى يصل إلى السطح ثم يدفعه إلى القاع بإحدى زعنفتيه .

صرخ وائل من الفزع وقد لمح القرش - الثعلب بزَعَنَفَتِهِ الظهرية المثلثة وفمه المفتوح المدجج بالأسنان

البحر الأسير

غاض ماء البحر حتى ظهرت حافته ؛ فكأن قاع البحر غابة من الإسفنج فتحت أشداقها وامتصت كل الماء ، بدون أن تترك قطرة واحدة للأسماك والكائنات البحرية التي يبست أجسادها ، وتكدست فوق الطحالب والغابات المرجانية ، وأوشكت على الاحتضار .

أراد وائل أن ينهض لكي يتبين حقيقة ما يحدث حوله ؛ لكنه اكتشف أنه مقيد إلى الصخرة بحبال من الأعشاب الحمراء ، سمع أنيناً خافتاً ؛ فتلفت حوله ؛ فإذا هي رنا مقيدة بالحبال نفسها على الحافة الأخرى للصخرة ؛ وقد استغرقت في نوم عميق .

انبعست تحت قدميه عين من الماء ؛ فمدّ فمه ليروي حلقه الذي كاد يجفّ من العطش . انتابته نوبة حادة من السعادة ، وإحساس عارم بالغثيان ، وعرف أنه شرب ماء أجّاجاً تختلط فيه الملوحة مع المراحة ؛ فلفظه من الفور . تأمل وجه رنا المكفهر المائل للاصفرار ، وجسدها الذي يرتجف من الجزع فاضطرب قلبه قلقاً عليها ، وراح يصفر لها ليوقظها ؛ دون جدوى .

تتابعت في مخيلته الصور ؛ منذ أن جاءت رنا إلى الصخرة في قارب صغير ، وأخبرته بأنها تريد أن تشاركه حلمه وتصبح فراشة مثله ؛ بعد أن فشلت في العثور على أمها ، حتى باغتها القرش - الثعلب ، وقيدهما إلى هذه الصخرة . وكان قد نصب نفسه ملكاً على مملكة الأحلام ، بعد أن عزل الفراشة الملكة ، وعين الفراشة الخفاش وزيرة للملكة ، وغير الدستور الذي يسرى في أرخبيل الفراشات منذ آلاف السنين ، واستطاع أيضاً أن يخدع طاووس البحر ؛ بأن دفع نحو فمه سيلاً من الكائنات الدقيقة الحمراء التي تسمم المياه ، وتقتل الأسماك ؛ فمات الطاووس مسموماً ، واستولى هو على مخزونه السري من الطحالب الحمراء ، وأصبح يتحكم الآن في أحلام الإنسان والحيوان والنبات ، ويختار لكل كائن حي حلمه ، ولايعطي أحداً أية فرصة للاختيار ؛ لأنه يعلم أن بعض الأحلام قد تقضى على عرشه .

تساءل وائل هامساً :

« أين ذهب ماء البحر ؟! هل تبخر ؟! » .

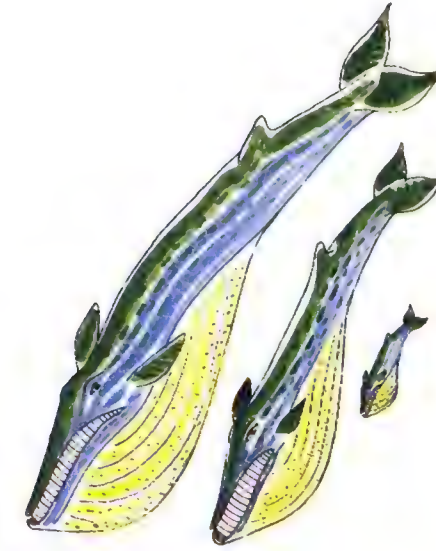
نهضت رنا من سباتها مذعورة ، واستنجدت بأخيها الذي شلّ الرعب لسانه . . قال القرش - الثعلب للأخوين متهمكاً :

« هل تحلمان بأن تكونا فراشتين ؟! » .

القاطعة ، يتجه بسرعة فائقة نحو الحوت الصغير . سبح نحو الأم وحذرهما من الخطر المحدق بوليدها ؛ فلطمت الماء برغفتيها ، وأطلقت صرخة هائلة ؛ بينما كفّ الحوت الأب عن الغناء ، وأحدث زفيراً قوياً عبر المنخرين ، واستدعى رفاقه من قطيع الحيتان بنداء حاد متقطع .

لبّت الحيتان النداء بضجيج يكاد يصم الآذان ، وأسرعت نحو الحوت الصغير لإنقاذه من أنياب القرش - الثعلب ؛ واكتشفت أنها جاءت بعد فوات الأوان ؛ فلقد افترس القرش - الثعلب صغيرها ، واختبأ في أحد الكهوف المنتشرة في سلسلة الجبال البحرية . حاصرت الحيتان الغاضبة مداخل الكهوف ، وراحت تضربها بذيلها وزعانفها ؛ حتى خيل إلى وائل أن الجبال قد تصدّعت ، وأنها اقتلعت من أوتادها .

حدّق وائل إلى بقع الدم التي خضبت الطحالب الفضية ، وراح يهذي ويهمهم ، ولم يستطع أن يسيطر على جسده الذي كان ينتفض من الحزن والهلع .



أجابا بصوت مرتعش :

« نعم . . . » .

ردَّ القرش - الثعلب بازدرء :

« من أين ستحصلان على الطحالب الحمراء ؟ » .

أطبق الصمت على الأخوين ، وتطلعا إلى السماء فرأيا فراشتين من الضوء : واحدة أرجوانية والأخرى زرقاء ؛ تحفقان بين السحب ، وتمتصان أشعة الشمس ، وتنزلقان في ظلال مقوسة بحواشٍ وردية ، وتخرجان من الظلال إلى السماء الزرقاء .

ومن قمة جبل الخفافيش الذي يبرز على سطح الماء ؛ انطلقت خفافيش بشعة الخلقة في أفواج متتابعة ، وانقضت على الفراشتين ، وانتزعت من أجنحتها الحراشف الملونة حتى بدت عروقهما ، وامتنعت من جسديهما الرقيق ؛ ففقدت الفراشتان القدرة على الطيران ، وظلت الرياح تؤرجعهما حتى سقطتا في قاع البحر الخاوي من الماء .

أحسَّ الأخوان بالإحباط يسري في عروقهما واغرورت عيونهما . إلا إن واثلا حاول أن يبدو متماسكا ، وقال لأخته بصوت يختنق بالبكاء :

« لن نستسلم له مَهْما حدث » .

رمقت رنا السرطانات التي تُختَضِر حولها ، والطحالب التي جفت حوافها وتهدلت سُعُوفها ، وقالت لأخيها في يأس :

« ما الذي يمكن أن نفعله وكل شيء يموت حَوْلنا » .

قال القرش - الثعلب :

« لن نستطيعا أن تفعلنا شيئا . . . فلقد حددت مصيركما ، واخترت لكل منكما حُلما مناسباً : سوف يستحيل وائل إلى نَجْمة بحر ، وإيناس إلى بلحة بحر . . . » .

وأكمل وائل صارخا في وجهه :

« . . . ونَجْمة البحر تفترس بلحة البحر ، و القرش - الثعلب يلتهم نَجْمة البحر ! » .

ردَّت رنا بتحدٍ سافر :

« لن يستطيع أحد أن يرغمنا على قبول حلم لا نريده » .

اشتعل القرش - الثعلب غضبا ، ولطم الصخرة بدَنْبه الطويل ؛ فانبعست عينان من الماء الساخن أمام الأخوين ، وكاد البخار يحرق وجهيهما . ملأ القرش - الثعلب صَدَفَتَيْنِ من الماء الساخن ، وحاول أن يجبرهما



على تناوله رشفه رشفة حتى أوشكا أن يختنقا من السعال ، ويحترقا من البخار المتصاعد ؛ ثم حلّ وثاقيهما ، وأعطى كلّاً منهما حزمة من الطحالب الحمراء قائلاً :

« فليخضّب كلّ منكما جسد الآخر ، وستريان كيف ستحلّمان وفق إرادتي » .

فوجىء الأخوان بحيّات وعقارب وكلاب وطُيور مفترسة تخرج من البخار الساخن وتُحوّم حولهما .

احتضن وائل أخته التي كانت ترتجف من الرعب ، وراح يحملق في تلك الكائنات المفترسة ، وأدرك أنها لا تحدث ظلاً حين تنعكس أشعة الشمس عليها ، ولا تصدر أصواتاً تدل على وجودها ، ولم يسمع لها نبأً أو عُواء أو فحيحاً أو رفيفاً ؛ فهي مجرد أشباح بلا صوت ولا ظلّ ؛ طُيور لا تنقر ، وعقارب لا تلدغ ، وكلات لا تعقر ، وحيّات لا تنهش . مدّ يده والتقط عقرباً وكلباً وطائرًا وحيّة ؛ فاستحالت تَوًّا إلى قطرات من الماء ذابت بين أصابعه .

استرددت رنا شجاعتهما ، وصرخت في وجه القرش - الثعلب :

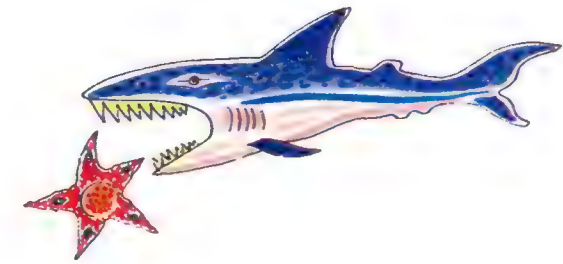
« سوف نصبح فراشتين كما نريد رغم أنفك » .

اهتاج القرش - الثعلب من شدة الغيظ ؛ وقال لهما :

« ستصبحان فراشتين كما تريدان ؛ لكنكما لن تعيشا طويلاً ؛ فسوف أحبس الشمس في هذه الصّدفّة ، ولن تجدا زهرة واحدة تمتصّان رحيقها . وبدون دفء الشمس ورحيق الزهور لن تستطيعا الطيران ، وسوف تهلكان » .

مدّ القرش - الثعلب زعانفه نحو الشمس ليمسك بها ؛ فانقسمت الشمس إلى نصفين ، استحال كل نصف إلى شمس مشرقة ذات حواشٍ حمراء وخضراء وأرجوانيّة .

أصدر القرش - الثعلب هديرًا خفيفًا ، ومدّ زعانفه مرة أخرى ، وأحكم قبضته على توءم الشمس ؛ فأفلتتا من زعانفه ، واستحالتا إلى فراشتين خضراوين تشعان بالضوء وترفرقان في الفضاء .



تَحَرُّرُ الْبَحْرِ

من أين يأتي هذا الرفيف . . أمن جبل سحريّ يجبس الريح في كهوفه ، ويطلقها كيفما شاء ، أمّ من مخلوقات فضائية تعيش في كوكب مجهول ، وتطلق من حناجرها هذا الغناء الشجي ؛ لتحذّر الكائنات الحية في كوكب الأرض من خطر القرش - الثعلب الذي استولّى على أحلامها ، أمّ هو زفير القرش - الثعلب الذي لايزال يطارد فراشات الضوء الخضراء ؛ ليمزقها بزعانفه الشرسة ؟

كان هذا الرفيف يأتي من الأسماك التي كانت تُحتَضَر وتثال عليها قطرات المطر وتبلل أجسادها اليابسة .

حُمِلَ الأخوان في السماء والمطر ينهمر مدرارًا ؛ فرأيا آلافًا من فراشات الضوء الخضراء تخترق السحابات الدكناء ، وتمتصّها - مثلما تمتص الرحيق - وتهبط رويدًا رويدًا ، وتقطر الماء في قاع البحر ، وآلافًا أخرى من الفراشات الأرجوانيّة تمسك في خراطيمها مكعبات من الجليد : الأزرق والأخضر والبرتقالي الذي التّقطّته من جبال الثلوج في الكواكب الأخرى المنتشرة في الأجرام السماوية ؛ ثم تهبط بها في قاع البحر في أسراب متتالية ، وتضعها برفق ، وتطلق من خراطيمها رياحاً ساخنة حتى تنصهر .

أصبح الرفيف هديرًا صاخبًا حين انبجست من الكُهوف الصخرية الموصدة التي أُسِرَ فيها البحر ؛ آلاف من عيون الماء العذب ؛ فهشم الماء الأبواب الصخرية الحصينة ؛ لتستحيل إلى شُدّرات من الحصى . وأخيرًا ؛ صار الهدير زقزقة عصافير ، وتغريد بلابل ، ومُؤاءٍ قِطط ، وعُواء كلاب ، وجُؤار أفيال ؛ مع انطلاقة البحر الأسير من كهوفه كالطوفان الذي يكتسح في طريقه كل شيء ؛ ملقيًا بالقرش - الثعلب في خِضمّ الأمواج الهادرة جارقًا معه مخزونه السريّ من الطحالب الحمراء .

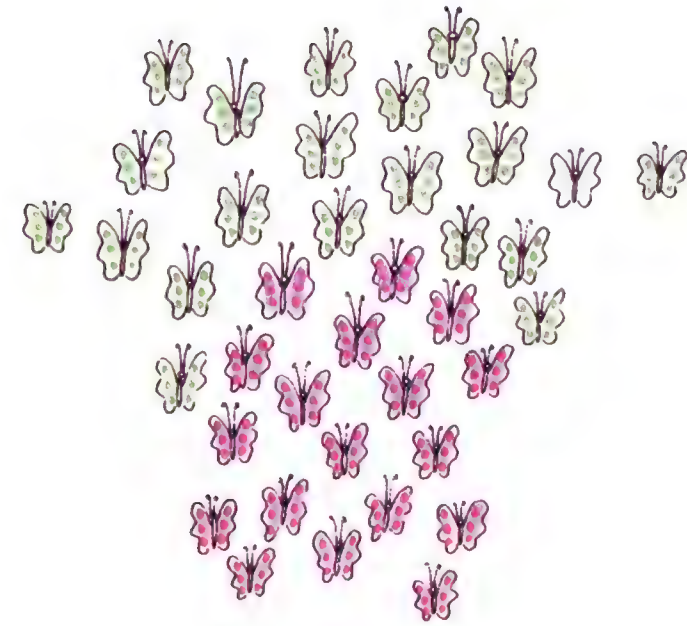
لم يصدق القرش - الثعلب ما رآه بعينه ، وكلما حاول التقاط طحالبه الحمراء من الماء المتدفق ضربه البحر بأسواطه ، وأثخن جسده بالجراح . استعاد توازنه بصعوبة ، واستسلم لليأس ، وراح يرمق طحالبه التي تذوب في المياه وتلّون وجه البحر باللون الأحمر في حسرة ؛ ثم غاص في القاع واعتزل في أحد الكهوف .

شهق وائل من النشوة لما داعبه البحر ورشّ الماء على وجهه ؛ ثم قال لأخته :

الآن أصبحت الأحلام ملكًا للجميع : مَنْ يستحم في هذا البحر يحقق ما يشتهي من أحلام . لقد ضاع عرش مملكة الأحلام من القرش - الثعلب » .

ألقت رنا بحزمة الطحالب الحمراء في البحر ، وأخذت تتأمل فراشات الضوء وهي ترقص على صفحة

المياه المزركشة ؛ تشارك الأسماك والكائنات البحريّة فرحتها بالنجاة ؛ ثم تصعد إلى السماء في شكل دائري .
ظلت فراشات الضوء ترفرف بأجنحتها بينما يقترب بعضها من البعض الآخر ؛ حتى تقلص قطر الدائرة ،
وتشابكت الأجنحة ، وامتزجت الأبدان ؛ وشكلت شمسًا جديدة تشعّ بالضياء ، وتنشر الدفء في أرجاء
الكون ، وتمدّ أشعتها على الأخوين الجالسين القُرُفُصاء على الصخرة ؛ تستحثهما على النهوض ، وتساعدهما
في خلع ملابسهما ، وتدفعهما برفق ليقفزا في البحر ، ويحققا حلميهما ويصبحا فراشتين مبرقتين بالألوان .



دَوَّامة الأعشاب الزرقاء



بعد أن أخفق القرش - الثعلب في اختيار حلم ملائم يستعيد به عرش مملكة الأحلام ؛ خرج من كهفه الذي اعتزل فيه ، وجُنَّ جنونه حين حُمِلَ في عَيْنِ الشمس الحمراء وشفيتها اللتين ارتسمت عليهما ابتسامة ساخرة ؛ وكاد يفقد عقله عندما رأى الأسماك والكائنات البحرية الصغيرة التي كانت تلوذ بالفرار حين تحسّ باقترابه ، أو تشمّ رائحته ؛ تلهو حوله ، وتمرّ أمام فمه المدجج بالأسنان القاطعة ؛ بدون أن تبدر منها بادرة من الخوف . وأحسّ بإهانة بالغة حين استلقت على ظهره أسماك ذات عيون تلسكوبية جاحظة ؛ وراحت تلتهم الغذاء المتساقط من سطح البحر غير عابئة به ، ومتجاهلة وجوده ، انتفض غاضبًا ، وانقضّ على تلك الأسماك ليمزقها إربًا ؛ فأفلتت من أنيابها ، ونبت لها أجنحة ، وطارت فوق سطح الماء . وسرعان ما استحالت إلى صقور حلّقت فوقه ، وحاولت أن تنقر عينيه . إلا إنه غطس تحت الماء قبل أن تناله وهو يهذي ويهمهم :

« أنا لم أفقد عرش المملكة فحسب ، بل غذائي أيضًا ! ومن الممكن أن أتضور جوعًا ! كلّ كائن بحريّ ضعيف يستطيع الآن أن يصبح عُصفورًا أو تينيًا أو نسرًا حالّ اقترابي منه كي ألتهمه ؛ وهذا بفضل طحالي الحمراء التي ذابت في البحر ، وجعلت الأحلام مشاعًا للجميع . . . لا بد من أن أهتدي إلى حلم أستعيد به العرش ، وينقذني من هذه الورطة » .

استشاط القرش - الثعلب غيظًا وكمداً ؛ إذ لمَح الأخوين يسبحان سويًا ، ويرقصان الباليه مع الأسماك والسرطانات ، ويغنيان لهم أغنية للبحر الذي تحرر ؛ ولفراشات الضوء التي أضحت شمسًا ؛ وللشمس التي تضحك ملء شدقيها وترحل إلى الأفق الغربي - فاندفع نحوهما في غفلة ؛ من أجل أن يشفي غليله بافتراسهما . أوشكت أنيابه أن تفتك بهما لولا أن أضاءت بعض الأسماك من أجسادها مصابيح خضراء وزرقاء وصفراء في وجهه ، وتراقصت الأضواء الملونة أمام عينيه ، وضربت الغشاوة على بصره ؛ ظل يتأرجح يمينًا ويسرًا حتى اصطدم بوائل الذي شلّ الفرع يديه وقدميه ، وتهدهده الغرق .

صرخت رنا حتى بحّ صوتها ، واستنجدت بالأسماك والسرطانات لتنقذ أخاها ؛ فاستحالت تلك الكائنات البحريّة من الفور إلى عشرات من النوارس والبجعيات البيضاء؛ رفرفت فوق سطح البحر؛ ثم مدّت مناقيرها ، وحلّت واثلا ، وصعدت به إلى الفضاء قبل أن يفترسه القرش - الثعلب بعد أن استعاد توازنه .

قالت البجعات والنوارس لوائل بعد أن استشعرت ثقل جسده :

« لم لا تصبح بجعة أو نورسًا مثلنا بعد أن خَضَبْتَ جسدك بهاء البحر ؟ » .

غمغم وائل قائلاً :

« سأصبح أنا ورنا فراشتين تمتصان الرحيق من زهرة اللؤلؤ ، وتستمتعان بدفء ذراعيها المخمليتين » .

التفت وائل حواليه ؛ فلم ير أثراً للقرش - الثعلب ولأخته أيضاً ؛ فصرخ باكياً :

« لقد افترس القرش - الثعلب أختي ! كيف أستطيع أن أحقق حلمي بدونها ؟ ! سوف أصبح فراشة وحيدة تضيق في الفضاء بلا رفيق !! وراح يضرب النوارس والبجعات بيديه الصغيرتين حتى ناءت بحمله ؛ فهبطت رويداً رويداً إلى أن اقتربت من سطح البحر وألقت به برفق .

سمع وائل صراخ رنا يأتي من بعيد خافتاً ؛ فسبح نحو مصدر الصوت وهو يرتجف من الحزن ؛ ليكتشف أن أخته قد أسرت في دوامة من الأعشاب الزرقاء الكثيفة ذات الشكل البيضاوي . لم ير إلا يديها الممدودتين نحوه ؛ فسارع بالإمساك بهما ، وراح يشدهما بأقصى ما يملك من قوة ؛ ليجتذبهما خارج دائرة الدوامة ، لكنها أسرته مع أخته ، وأخذت تدور حول نفسها في ببطء وأناة . استسلم لليأس ، واستلقى جوار أخته التي أغشي عليها . أغمض عينيه ، وأحس بالدوار عندما بلغت سرعة الدوامة العشبية ذروتها ، وفوجيء بأنها تلقي بهما في أخذود بحري عميق ؛ تتساقط عليه سيول الوخل من قمة جبل السمندل الأحمر الذي كان واقفاً بلونه المزركش ؛ يقهقه عاليًا كيهلوان عجوز ، ويبرز لسانه اللزج إلى الأمام .

لم يشعر وائل بما حدث له بعد سقوطه في الأخدود ؛ فلقد فقد وعيه من الخوف ، ومن كرات الوخل التي تساقطت على وجهه . ولما أفاق بحث ببصره في هلع عن رنا ، حتى وجدها ملقاة جواره مغطاة تماماً بالوخل اللزج ؛ فغسل جسدها بهاء البحر ، وربت على خدّيهما حتى استفاقت - هي الأخرى وأخذت ترنو إليه في ذهول .

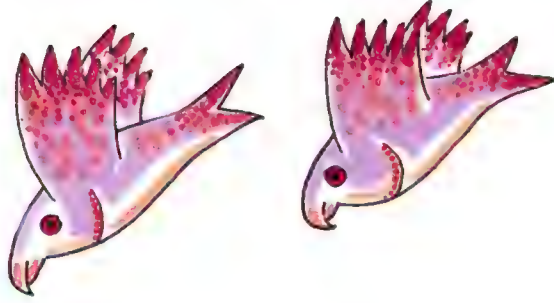
ارتعش جسد رنا ، وتقلصت عضلات وجهها لدى انبعاث صوت انفجار رهيب من أحد الكهوف البحرية . كانت الحيتان الغاضبة تحطم باب الكهف الذي أوصده القرش - الثعلب على نفسه . غطت رنا وجهها بيديها ؛ لكيلا تصيبها قطع الصخور المتطايرة ؛ ثم دفنت رأسها في صدر أخيها الذي كان يحملها بدهشة إلى الحيتان المتجمهرة أمام الكهف ؛ وكانت تعبر عن غضبها بإحداث زفير قوي عبر المنخريين تارة ؛ وبلطم الماء بزعانفها تارة أخرى ، وبدأ أنها تفعل ذلك لإجباره على الخروج من مخبئه .

ولم تكن الحيتان تعلم أن السمندل الأحمر المزركش قد هبط من الجبل تَوّاً ، وتسلل إلى الكهف الذي يعتزل فيه القرش - الثعلب ، ولم يعطه أية فرصة للتفكير في اختيار حلم ملائم ؛ من شتى الأحلام المتناقضة التي تراءت له ، وأفرز في فمه المفتوح سائلاً لاذعاً يسبب إحساساً بالحرق ، وعضّه في ذنبه ثم لاذ بالفرار .

صرخ القرش - الثعلب من الألم ، وخرج من كهفه غير مكترث بالحيتان المتجمهرة أمامه ، وراح يدس أنفه

في أجسادها ويضحك بشكل هستيري ؛ وهو يستحيل مرة إلى سلحفاة بحرية تسبح ببطء حول ذيولها ، ومرة أخرى إلى أفعى تتلوى أمامها ثم تسبح نحو جبل الخفافيش ، ولحظة أن قررت الحيتان الفتك بالأفعى ؛ استحالت إلى هُدُود تنبعث منه رائحة كريهة ؛ أخذ طريقه إلى سطح البحر ، وظل يرفرف بأجنحته ، ويغرد بصوت أجش متقطع يشبه عواء ذئب جائع ؛ أيقظ الخفافيش من نومها .

أطل خفاش عجوز من إحدى نوافذ كهفه ، وأرسل ببصره نحو ذلك الطائر القذر الذي اعتاد أن لا ينظف جسده منذ الولادة حتي المات ؛ ولم يستطع أن يقاوم إحساسه بالغثيان فتقياً ؛ ثم قرر أن يفتك به ؛ فطار نحوه ، واعتلاه ، ووخز رقبته بأسنانه الحادة ، وامتنص دمه .



أمومة

رأى وائل ذيل حوت يتدلى أمامه من حافة الأخدود ، ولم يجد أمامه مفرًا من استخدامه حبلًا للنجاة والخروج من هذا المأزق .

حدّق إلى عيني أخته الزائغتين التي كانت لا تزال تتنابها حالة من الدهول ، وصرخ في وجهها لعلها تستفيق ؛ بيد أنها لم تعره التفاتًا كأنها لا تشعر بوجوده ؛ دفعها يديه نحو ذيل الحوت ، وحنّتها على الإمساك به لكنه لم يستطع أن يبسط يديها المتصلبتين ؛ فهزّ جسدها بعنف حتى كادت تنكفيء على وجهها ؛ وعندئذ استفاقت من دھولها ، وتفرست وجهه كأنها تراه لأول مرة ؛ انحدرت دمعتان من مقلتيها ، وصرّت أسنانها ، وأخذت تصدر نشيحًا مكتومًا . ضمّهما وائل إلى صدره ، وهمس في أذنها :

« لا بد أن تنسلق ذيل الحوت حتى نخرج من هذا الأخدود قبل أن نتعرض للهلاك » .

تعرّفت رنا إلى نبرات صوت أخيها ، وبدأ الشعور بالأمان يتسرب في كيائها ، وقالت : « لقد سمعت شقشقة عصفور تأتي من الفضاء البعيد ، وسمعت أمي وهي تقلّب قطعًا من السكر في كُوب من الحليب لتعطيني إياه .

ورأيتها وهي تجدل ضفيري ، وتضع الفطائر في حقيبتني ، وتصحبني إلى المدرسة ، وأحسست بيديها الدافئتين دائمًا . لقد اشتقت إليها كثيرًا - يا وائل - فهل ستتاح لنا فرصة لقائها قبل أن نموت ؟ .

أحس وائل بحزن دفين يتفجر في أعماقه ؛ لكنه لم يشأ أن يستدرج إلى تلك المشاعر التي قد تشلّ قدرته على التفكير في هذه اللحظات الفاصلة من حياتها ، ولذلك ؛ أمر أخته بلهجة صارمة بأن تبدأ في تسلق ذيل الحوت . نظرت إليه رنا في دهشة ، ونفذت ما أمرها به وقلبها يكاد يسقط من الخوف . سعد وائل خلفها ، وساعدها في الصعود حتى وصلت إلى حافة الأخدود . سبحت رنا برفق محاولة الابتعاد عن الحوت بدون أن يشعر بها ؛ التقت عينها بعيني الحوت فكادت تعصف بها الرهبة ، وسُرّعان ما استعادت سكينتها ؛ إذ رأت حزنًا جليلاً ينبعث من عينيه . تملكها شعور بالتعاطف نحوه ، واقتربت منه وهي تنظر بلوعة إلى زعنفتيه اللتين يهزهما بيأس .

همس إليها وائل :

« إنها أنثى الحوت تفتقد صغيرها الذي افترسه القرش - الثعلب » .



قالت رنا بصوت متهدج :

« هل ستحزن أُمي مثلها عندما يحدث لي مكروه ؟ » .

لاذ وائل بالصمت ، وراح يقضم أظافره ؛ فلقد أربكه هذا السؤال المفاجيء . . . فهل ستشعر أُمه حقًا بهذا الحزن العميق عندما تفتقد ولديها أم سينتابها مجرد كَدَر أو ضيق للحظات ؛ تنشغل بعدها في أبحاثها عن زهرة بريّة أو شجرة نادرة ؟

واعتصر الحزن قلبه لما لم يهتد إلى إجابة حاسمة عن هذا السؤال الذي اجتاح مشاعره ، وأطاح ببرباطة جأشه ؛ فدفن رأسه في كومة من الأعشاب ، وانخرط في بكاء مرير .

لم تلحظ رنا ما جرى لوائل ، لأنها انشغلت بتأمل أنثى الحوت التي حملت إلى الماء ، واغرورقت عيناها وقد تراءى لها صغيرها الذي رحل وهو يلهو بجذع شجرة عملاقة ويقذفه عاليًا .

لطمت أنثى الحوت طين القاع بزَعْنَفَتَيْهَا القويتين ؛ فأحدثت فيه فجوتين عميقتين وارتجف جسدها حين رأت الطحالب الفضية تشرب لون الدم الأحمر القاني ؛ ثم أطلقت صرخة هائلة اهتزت لها مخلوقات البحر والبر ؛ حتى الطيور البحرية التي كانت تحلق وقتئذٍ في الفضاء توقفت عن الرفيف والزقزقة ؛ وكادت تهوي في البحر .

نظرت أنثى الحوت بعينيها المحمرتين إلى الأخوين اللذين بدا عليهما الهلع ، وأومأت إليهما بأن يقتربا منها؛ فسبحا نحوها بحذر بالغ ؛ وعندئذ ربت بزَعْنَفَتَيْهَا على جسديهما برفق حتى تبث في قلوبهما الطمأنينة ، وأشارت إليهما بامتطاء ظهرها ، وصعدت بهما إلى سطح البحر .



محاولة انتحار

تمدد الأخوان فوق الأعشاب المخملية التي تغطي إحدى الصخور ؛ ليلتقطا أنفاسهما بعد المغامرة التي كانت ستودي بحياتهما ، وسرى في كيانيهما شعور بالأمان لم يدركاه من قبل ؛ حين أحاطتهما أنثى الحوت بزَعْنَفَتَيْهَا مثلما يحتضن الطائر أفراده ؛ خوفًا عليها من الجوارح .

جلست رنا القُرْفُصَاء ، وأطالت النظر إلى عينيها الزائغتين ووجهها الوديع . رأت بضع قطرات من اللبن تنساب على صدرها ؛ فاجتاحتها رغبة عارمة في أن تمتص حلميتها ؛ أمالت رأسها على ثديها ، وهمت بالرُضَاعَة ؛ إلا إنها تراجعت أمام ملمس جلدها الخشن الذي بدأ يتشقق بفعل حرارة الشمس .

نهضت رنا من جلستها وقد تركز بصرها على أنثى الحوت ؛ فإذا بعينيها تفقدان بريقهما ، وإذا بزَعْنَفَتَيْهَا تأخذان في الارتخاء .

قالت لوائل مندهشة :

« هل سمعت من قبل عن حوت يلجأ إلى الانتحار حزنًا على صغيره الذي رحل ؟! » .

انتفض وائل واقفًا ، وطاف حول أنثى الحوت ، وتحسس جلدها الذي تنتشر به الشقوق الغائرة والقروح . حنّ إلى وجه الشمس كأنه يرجوها أن تخفف النار المستعرة التي تتلظى بلهبها أنثى الحوت ، وتضرع إلى السحابات أن تقطر من ضروعها مطرًا وبردًا وسلامًا عليها . انقبض صدره عندما رأى قطرات اللبن تتخثر على أثدائها ، وتستحيل إلى حبيبات صفراء ، وشهق حينما أغمضت عينيها ببطء وخالها حُتْضَر.

تلّفت وائل حواليه مشعوفًا آملًا في العثور على دلو أو إناء أو علب فارغة ؛ ليأخذ من ماء البحر ويرش على جسدها ؛ ليقبها من حرارة الشمس ؛ لكنه لم يجد إلا بضع أصداف مهشمة وفروع أشجار يابسة . صرخ وائل في وجه رنا التي استسلمت لبكاء يائس ؛ فهُرَعَت إلى مساعدته ، وقفزت في البحر ، وملاّت فمها الصغير بالماء ، وعادت لترشه على الجسد اليابس لأنثى الحوت . وحذا وائل حذوها عدة مرات من دون جدوى ؛ فلقد ظلت أنثى الحوت على حالها ، ولم تبدر منها إيلاء أو حركة أو همهمة تدل على أنها على قيد الحياة .

خيم اليأس على الأخوين الملتاعين ؛ فجلسا يترقبان موتها بين لحظة وأخرى .

فجأة خرج من البحر جيش من المحارات كانت تصعد في أفواج فوق الصخرة ، وتفتح أصدافها وتطبقها

بقوة ، فتقذف بالماء - مثلها تقذف الطائفة النفائة بالهواء - على جسد أنثى الحوت ، وكررت ذلك مرات ومرات حتى فتحت أنثى الحوت عينيها وقفزت المحاررات في البحر مرة أخرى .

سمع الأخوان أنيناً خافتاً وعويلاً مكتوماً ينبعث من جسد أنثى الحوت ؛ ثم شهقة هائلة تشبه الصهيل الأخير لخيول تطويها الكثبان الرملية وارتجج جسدها ارتجاجاً عنيفاً حتى خيل إليهما أن زلزالاً رهيباً يقذف بالصخرة في الفضاء .

التقط الأخوان أنفاسهما ، وراودهما الأمل في أن تعود أنثى الحوت إلى البحر ، وتنضم إلى قطع الحيتان الذي رحل خلف الجبال الزرقاء البعيدة . ومّرت عليهما لحظات ثقيلة من الترقب والانتظار ؛ لم يطرأ خلالها أي تغير على موقف الأم التي بدا أنها فقدت رغبتها تماماً في الحياة .

لم يستسلم وائل لليأس ؛ ووقف على حافة الصخرة ، وشرع في أداء أغنية الحيتان ؛ فانطلقت من حنجرتة حمّمة خيول وخوار بقر وهدير أنهار وصلصلة حديد وصليل سيوف ، وشدا صوت رنا بهديل حمام وخرير مياه ورفيف فراشات وحفيف أشجار وهسهسة إبل ؛ ثم كفّا عن الغناء ، وأخذتا يقلدان نداءات الحيتان من هدير وصراخ وعواء ونقنقة ونباح ؛ حتى بّح صوتاهما ، وانكفأ على الصخرة ، وأجهشَا بالبكاء .

اختلط بكأؤهما بضوضاء آتية من جهة البحر ؛ رفعاً رأسيهما ؛ فرأيا جبلاً من الزبد الأبيض وأهرامات زرقاء من الأمواج الهادرة تكاد تبلغ عَنان السماء . كانت الحيتان تسبح نحوهما ، وترفرف بزعانفها كأنها طيور خرافية بعثت من عصر آخر بعد انقراضها . غنّت الحيتان - كما لم تغن من قبل - وجلجلت أصواتها حتى فاض البحر على شاطئيه ، وأوشكت النجوم أن تغير مساراتها حول مجراتها ؛ لتنصت إلى هذا الغناء المهيّب لولا خشيتها من اصطدامها بالمجرات الأخرى ؛ مما قد يؤدي إلى فناء الكون ؛ فاكثفت بما ترامى إلى أسماعها من نغمات خفيفة .

نهضت أنثى الحوت بثقل ، وأبصرت قطع الحيتان الذي اقترب من الصخرة وتمتت بالغناء ؛ فانطلق من حلقها صوت يشبه الحشرة أحياناً والمهممة أحياناً أخرى . صعد زوجها إلى الصخرة ؛ فاعترتها قُشْعْرِيَّة هائلة ؛ أوماً إليها بأن تقفز في البحر ؛ فرفضت الامتثال لأوامره . أصدر زوجها هديرًا غاضبًا ، ودفعها بزَعْنَفَيْهِ حتى اقتربت من حافة الصخرة ؛ بيد أنها رمقته بتحديدٍ وزارت زئيراً خفيفاً ؛ ثم أقصته بعنف حتى عاد القهقري رغماً عن إرادته ، وربضت هي في مكانها ، بينما تنشد الحيتان ترانيل تشبه نحيب الأمهات اللواتي فقدن أطفالهن في حروب خاسرة .

أغرقت رنا في البكاء ، وارتعشت أهداب أنفها ، وارتجفت شفتاها ، وبَدَت كعصفور صغير يطوّف حول عشّه بعد أن اختطف النسر صغاره ؛ ثم قفزت في البحر تاركة وائلًا في دهشة من أمره . وبعد قليل سعدت بجوار أنثى الحوت ، وتمتت بكلمات لم يستطع أن يتبينها وائل الذي خيل إليه أنها استحالت إلى فيل أبيض صغير ؛ ظلّ يدور حول أنثى الحوت ، ويدب على الأرض حتى تمخضت الصخرة عن سحابة من البخار الأزرق الكثيف ؛ راح يرقص رقصاً إيقاعياً على ديبب أقدامه . ورويداً رويداً خرج من البخار حوت رضيع



رَمَادِي اللون ؛ فتح شِدْقِيه ، واندفع نحو أمه في لهفة يمتصّ ثديها اليابس ؛ فلمّا لم يجد به حليماً ضربها بِزَعْنَفَيْهِ غاضباً ، وكرر محاولته حتى انفجرت من حلماتها نافورة من الحليب الدافئ ؛ كست وجه وذراعي وائل الذي انتفض مشدوها . ولمّا شبع الحوت الصغير ؛ قفز في البحر يلهو ببقايا قارب صغير دفعته الأمواج نحوه ؛ فقفزت أمه خلفه ، وأحاطته بِزَعْنَفَيْهِ ، وانضماً إلى قطيع الحيتان الذي كان يتأهب للرحيل مرة أخرى خلف الجبال الزرقاء البعيدة . ولم يلحظ أحد أن الحوت الأب رابض على الصخرة تنتابه حالة من الهذيان بعد أن رأى ابنه يبعث حيّاً ، أو أن وائل قد صفعته المفاجأة وعقدت لسانه ؛ فمدّ ذراعيه كضير ضلّ خطاه نحو أخته التي صارت حوتاً ، وافترقت عنه من جديد .



فراشة الأميرة الحمراء

ها هو وائل الآن وحيداً على الصخرة شارد اللب مخيّر الفكر ؛ بعد أن خذلته أخته ورحلت بمحض إرادتها ؛ لم تفسر له موقفها ، ولم تودعه بكلمة أو إشارة تهدى روعه . ولقد رحل الحوت الأب هو الآخر وراء أنثاه وصغيره الذي ولد من سحابة من البخار الأزرق ، بدون أن يرهق عقله بتفسير ما حدث .

كيف يتخذ وائل قراره بعد كل هذا العناء الذي كابده ؟ هل يصبح حوتاً ويلحق (برنا) أم يصبح فراشة مزركشة الألوان تنهل الرحيق من زهرة اللؤلؤ التي يتوق إلى الاسترخاء على ذراعيها المخمليتين ، والنوم على بَنَلاتها الدافئة ؟

تذكّر مذاق قطرات الرحيق التي تدفقت من ثُوبِجها وانثالت على وجهه كحبات المطر ؛ فلحس شفثيه . وتراءت له زهرة اللؤلؤ كعروس البحر التي تشكلت من الرّيد الأبيض ، واتكأت على حافة الصخرة ، وقالت له بصوت يشبه مُواء قطّة تحتضر :

« إياك أن تتخير حلمًا يقصّيك عني » .

انهمرت الدموع من عيني وائل ، وامتزجت بقطرات الحليب التي تخثرت على وجهه ، والتقطت أذناه أصواتاً تشبه رجفة الناي وأنين الكمان ورعشة الريح ، وخال رنا واقفة على قمة الجبال الزرقاء البعيدة تشدو بأغنية الحيتان ؛ فارتجف جسده ، وساءل نفسه في حيرة :

« كيف أحنث في وعدي لزهرة اللؤلؤ ؟ وكيف أصير كاذباً أمام الفراشة الملكة التي أقسمت أمامها أن أكون فراشة ؟ قد تموت ما لم أحقق حلمي الذي اخترته بإرادتي . . . لقد خذلتنى رنا مرّتين ؛ مرة عندما تلكأت في المجيء معي إلى مملكة الأحلام في بادئ الأمر ، والمرة الأخرى عندما جاءت واستقرت على حلم يحقق لها الفرح ، ورحلت بمفردها بدون أن تعبأ بي .

اعتصرت الأحزان قلب وائل ، وهضرت الأفكار المتضاربة عقله ، وأخيراً ؛ حسم أمره وقرر أن يصبح فراشة . غطس في البحر دافع العينين ؛ ثم صعد مرة أخرى ؛ ولم ينتبه إلى قطرات الحليب التي ييسر على ذراعيه وحالت دون بللها بالماء .

في بادئ الأمر تضاعف جسده حتى استحال إلى زهرة ؛ ثم نبتت من الأوراق جناحان ، ومن الجذر ذيل مبرقش بالألوان ، ومن التؤجج رأس صغير لفراشة الأميرة الحمراء — مشى على الصخرة مزهواً ، وحاول أن يختبر قدرته على طيران الرفيف ؛ بأن حرك أجنحته بشكل دائري ؛ فارتفع قليلاً عن الأرض ثم سقط . تطاير رذاذ الماء على جسده ، وسرت فيه قشعريرة . عاود المحاولة لكنه سقط من جديد ، وكاد جناحه يتهشمان .

أصيب وائل بهلع ؛ وتأمل جناحيه الشفافين اللذين تبرز منهما العروق ؛ جناحيه العاجزين عن امتصاص أشعة الشمس ؛ وعندئذ أدرك سر عجزه عن الطيران ، واكتشف أن قطرات الحليب التي حالت دون بلل ذراعيه عندما كان بشراً هي التي تسببت في تلك الكارثة . انزوى بين الطحالب الخضراء وهو يرتجف من البرد ، وتذكر آلاف الحراشف الصغيرة التي رآها تغطي جناحي الفراشة الملكة والتي بدت حمراء حين انعكست عليها أشعة الشمس ؛ برغم أن كل حرسفة منها كانت بلون يختلف عن الأخرى . امتلاً صدره حنقاً إزاء الفراشة الملكة التي تمتلك جناحين مزركشين ، وندب حظه العاثر ؛ فلقد فقد كل شيء ، وصار حلمه كابوساً : الآن لن يستطيع أن يلتقي زهرة اللؤلؤ ، ولن يستطيع أن يلحق بالحوث الصغير ؛ أخته التي رحلت إلى الجبال الزرقاء البعيدة .

حمل وائل بحسرة إلى حواشي الظل الحمراء التي تتأرجح حول قرص الشمس ، وقرر ألا يستسلم لليأس ، وأن يبحث عن حل سريع يجعله قادراً على الطيران ؛ قبل أن يتبدد أمله ، ويروغ منه آخر شعاع للشمس التي بدأت في الرحيل إلى الأفق الغربي . اتكأ وائل على السعوف المموجة للطحالب الخضراء ، واستغرق في تفكير عميق . أحس ببعض الدفء يتسرب في عروقه ، وتهلل من الفرح حين رأى بقعاً خضراء تنتشر على جناحيه . نظر بامتنان إلى الطحالب الخضراء التي روت جناحيه بعصيرها الأخضر ، وركض حول حجر ساخن ومزج جسده عليه ، وامتص آخر شعاع للشمس قبل أن ترحل . حرك جناحيه بوجل ؛ فارتفع عن الأرض رويداً رويداً ثم انزلق ببطء كأنه يهبط بمظلة . أشرق وجهه من الفرح ، واختبر قدرته على الطيران عشرات المرات حتى ملأته الثقة ؛ ثم قرر الرحيل إلى أرخبيل الفراشات ، وطار بشكل دائري حول الطحالب الخضراء التي كانت بعض سعوفها قد تهدلت ؛ بعد أن منحته عصارتها الخضراء والريح تذرورها ، وتلقي بها بين جبال الزبد البيضاء .



الشجرة القاتلة

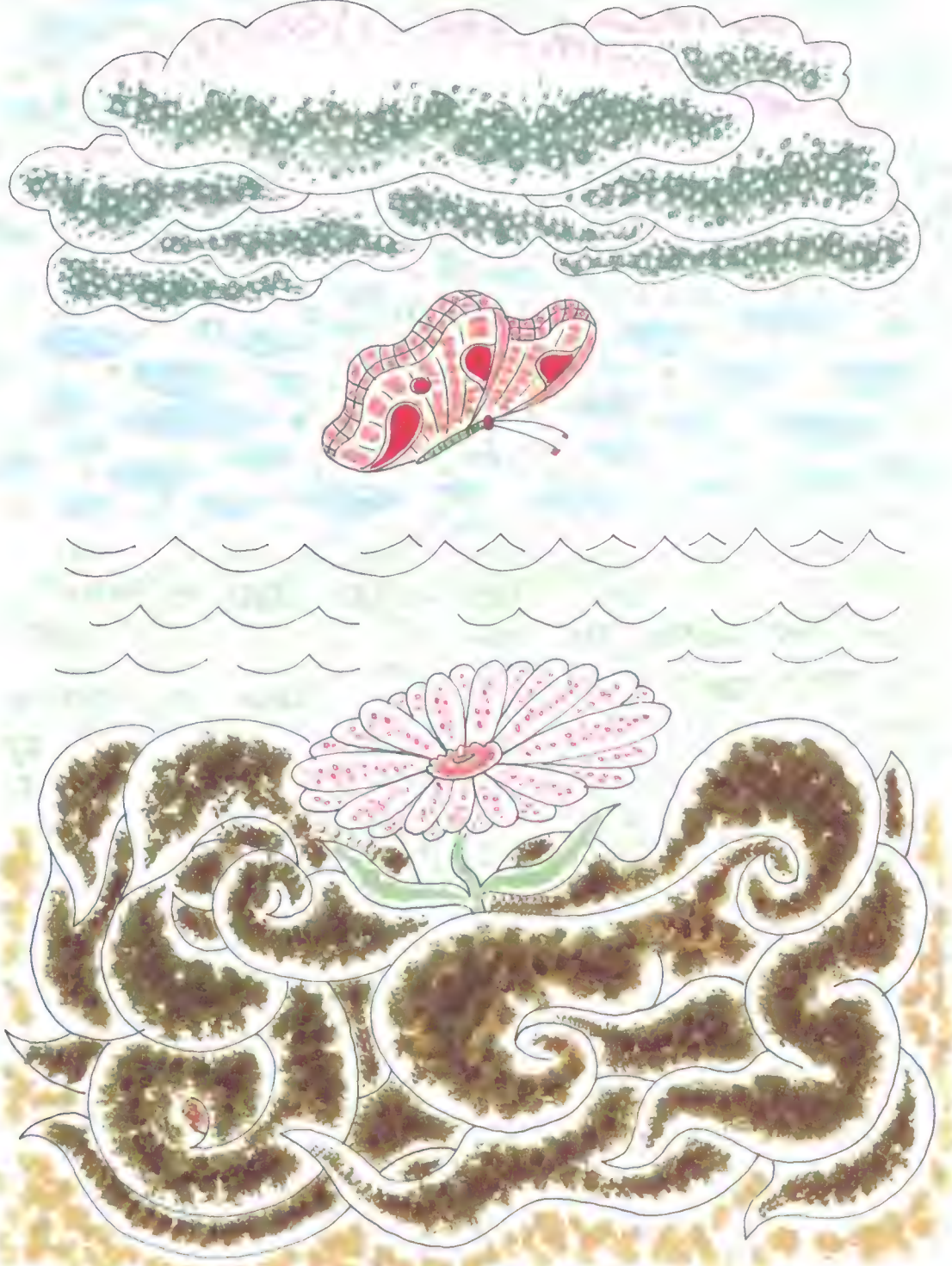
خيَّل إلى الفراشات والزهور والأشجار والقواقع - في أرخبيل الفراشات - أن الفراشة الخفاش قد رحلت إلى الأبد بعد موت مليكها القرش - الثعلب ، وأنها لن ترعجهم مرة أخرى .

ولقد خاب ظنهم ؛ لأن الفراشة الخفاش لجأت إلى حيلة تستقر بها بينهم ؛ من دون أن يشعروا بها ؛ فلقد ملأت سرّاً عدة قنينات من ماء البحر - عندما تحرر - وسكبتها على جسدها ، واستحالت إلى شجرة التَّين البنغالي الطفيلية الزاحفة ، وفي لحظات قصيرة كوَّنت غابة كبيرة ؛ تدلَّت خيوطها في الهواء مثل خيوط لعنكبوت عملاق ، وتأرجحت هي من النشوة ، ومدَّتْها باستخفاف نحو الأشجار التي تنتشر حولها ، وامتنصت ما في خلاياها من الغذاء والسكر ؛ ثم خنقتها واحدة تلو الأخرى ، وأحسَّت بلذة كبيرة لدى سماعها طقطعة الفروع المتكسرة وهسيس الجذوع التي هصرتها هصرًا ، وضحكت كساحرة عجوز حين رأت أوراق الزهور الذابلة تتناثر حولها وهي تدوس عليها بجذورها القوية .

ألقت شجرة التَّين البنغالي نظرة ساخرة إلى النمل النَّسَّاج ، بعد أن فرغ من صنع قلعة من الكرتون بعجينة الخشب ؛ من أجل فراشات الأحلام التي باتت عاجزة عن الطيران ؛ لأنها لم تجد زهورًا تمتص رحيقها ؛ بيد أن الفراشات رفضت الامتثال لأوامر مليكتها بالدخول إلى القلعة ؛ برغم تحذيرها لها من اقتراب الجذور الخائقة لشجرة التَّين البنغالي . تجمهرت فراشات الأحلام حول الزهور الذابلة ، ومدَّت خراطيمها داخل كؤوسها عساها تمتص رحيقها وتستعيد قدرتها على الطيران ؛ ولم تجد إلا بضع قطرات من الماء المشبعة بالغبار وحببيات الرمال . تلقت الفراشات حولها بهلع فلم تجد إلا زهرة اللؤلؤ ؛ وهي الزهرة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة في الأرخبيل ؛ زحفت نحوها غير عابئة بجذور الموت التي مدَّتْها شجرة التَّين البنغالي لتحوّل بينها وبين زهرة اللؤلؤ .

تضرعت زهرة اللؤلؤ إلى الفراشات اللاتي تستنزف رحيقها ، بأن تترك بضع قطرات من الرحيق لفراشة الأميرة الحمراء التي كانت تتطلع إليها وهي ترفرف في السماء ؛ لكن الفراشات لم تعبأ بتضرعها ، والتفتت الجذور الخائقة حول أعناق بعضها فلفظت أنفاسها في الحال ؛ بينما اكتفت الفراشات الأخيرات بما حصلت عليه من رحيق ، ولادزت بالفرار من الأرخبيل .

ألقت زهرة اللؤلؤ بنظرة إلى الجذور التي حاصرتها وأحكمت عليها الحصار غير مبالية ؛ كأنها لم تعد تكثرت بالموت ، وتابعت بعينها الدامعتين فراشة الأميرة الحمراء التي كانت تجوب الأرخبيل بحثًا عنها ؛ وعجزت عن رؤيتها وسط زحام أوراق الأشجار الذابلة التي تناثرت حولها وشكلت تلالاً صفراء .



شهقت فراشة الأميرة الحمراء حين تأرجحت أمامها ورقتان ذابلتان ؛ ورقة صفراء بحواف بُنيّة ، وورقة مبرقشة ببقع الدم ، وأيقنت أن أرخبيل الفراشات قد تعرض لكارثة ما حين رأت الخراب الذي حلّ به ، وتلال الأوراق الصفراء التي تنتشر في كل مكان ، وأدركت أنه لم يعد وطنًا للفراشات والأشجار والزهور والأحلام ، وتساءلت في حزن بالغ :

« ألن ألتقيَ بزهرة اللؤلؤ بعد كل هذا الرحيل ؟ » .

طافت حول الأرخبيل وهي تنقب ببصرها عن زهرة اللؤلؤ ؛ لكنها لم تتبين إلا شبكة الجذور الخائفة التي جثمت على صدر الأرض حتى ضاقت بها ؛ كملاءة سوداء مثقبة نشرت على سرير من الصلصال الأصفر اليابس .

زاد اللون الأصفر إحساس فراشة الأميرة الحمراء بالإعياء والوهن ؛ فتطوحت بعنف وأوشكت أن تسقط على أحد الأغصان اليابسة ؛ بيد أنها استطاعت أن تستعيد ترازنها قبيل أن تنالها الجذور التي امتدت نحوها كمخالب قِطّ جائع . خمشت حراشف جناحيها ، وحملت إلى السماء بيأس ؛ فإذا بالشمس تنتفخ حتى تصبح كرة كبيرة حمراء من نار ؛ شعرت بأن لظاها يكاد يحرق جناحيها . حطّت على شجرة صهباء عملاقة لم تصل إليها جذور الموت بعد ؛ تحتمي بظلالها ؛ غير أنها كانت شجرة بلا ظلال تتجه أوراقها الصغيرة عموديا نحو ضوء الشمس .

فار البحر كأن أحدا أشعل في قاعه آبارًا من النفط . غمر الأرخبيل بهاء زعاق شديد الملوحة ، وفرت إلى الشاطئ أعداد هائلة من المحارات التي لم تحتمل ملوحة مائه وحرارته التي اقتربت إلى درجة الغليان . انتزعت الجذور الشرسة أصداف المحارات ، واعتصرت أجسادها الطرية حتى تساقطت واحدة تلو الأخرى .

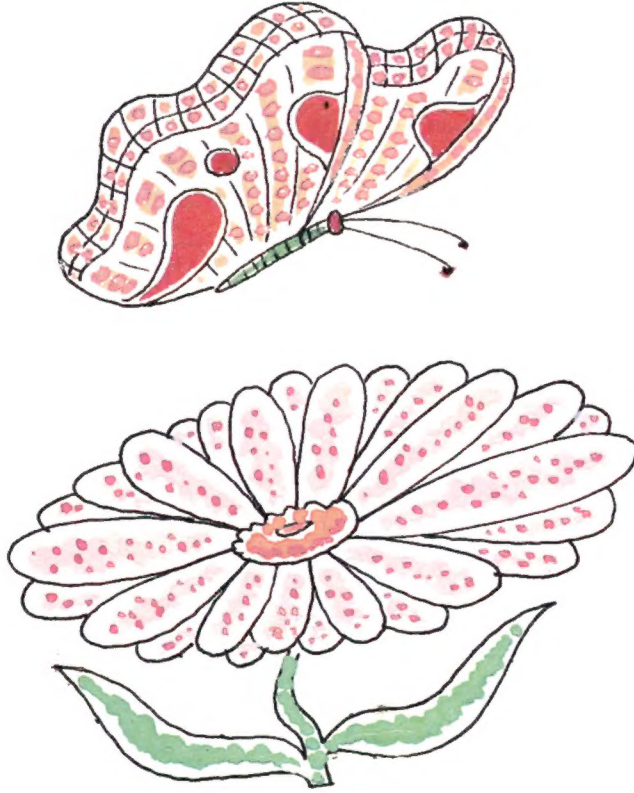
تأججت نار الشمس إلى حد أن شعرت فراشة الأميرة الحمراء بأنها تُشوى في فرن ، وانصهرت أجساد المحارات واستحالت إلى بركة من الغراء الشمعي الأصفر ؛ غلّف الأشجار المهشمة والزهور الذابلة .

اعترت فراشة الأميرة الحمراء نوبة من النشيج والبكاء اليأس ، وتبعت بعينها الداهلتين مجرى الشمع المصهور ؛ فرأته يتلوّى كأفعوان يحاصر زهرة اللؤلؤ التي تهدلت أوراقها ، واستسلمت للموت . زخفت نحو

زهرة اللؤلؤ في لهفة كأنها تتقلب على جمرات من النار ؛ مدّت خرطومها في تويجها ؛ فلم تجد إلا قطرات من الملح الأجاج الساخن ؛ رقدت على الأرض وترقت الموت بين لحظة وأخرى . فوجئت بالفراشة الملكة تجذبها بخُرطومها إلى قلعة الكرتون ، وظلت ترفرف بجناحيها فوق جسدها الملهب حتى برده .

ومن إحدى نوافذ القلعة اشرأبت ؛ فرأت زهرة اللؤلؤ مغلفة برداء من الشمع الأصفر كأنها تمثال في مُتحف الشمع ؛ أشاحت وجهها وتطلعت إلى السماء ؛ حين سمعت هدير العواصف وزئير الرعد . رأت السحابات السوداء تلتف حول قرص الشمس الأحمر وتنصهر تباعاً ؛ ثم تنهمر مطراً مدراراً رطب وجه الأرخبيل المستعر ، والعواصف الهوجاء تقتلع شجرة التين البنغالي وتلقي بها في البحر — تأرجحت قلعة

الكرتون حتى طارت في الهواء وتمزقت صفائحها ، وسقطت الفراشتان في البحر على زورق صغير من قشور شجرة البلوط ، والتأعت فراشة الأميرة الحمراء وهي تتابع زهرة اللؤلؤ بأوراقها الشمعية الصفراء ، بينما كانت تختفي بين تلال الفروع المهشمة ، وتستسلم لنوم عميق .



الصُّحُون الباردة

فرغ وائل من قصّ روايته فراشة الأميرة الحمراء على أخته رنا . نظر بضيق إلى الصحون الباردة المرصوفة أمامهما على مائدة الطعام ؛ وقال لأخته :
« لقد فقدت شهيتي تمامًا » .

نهضت رنا متثاقلة ومن النافذة أبصرت قرص الشمس الذي نشر ظلاله الحمراء على الزجاج المُغْبَش بالغبار . تفرقت دمعتان في عينيها ، وقالت لوائل :
« لقد أوشكت على الغروب ولم تأتِ أمي بعد » .
وعلق وائل مهمومًا :

لقد نسيت آخر مرة تناولنا فيها الطعام مع أمنا منذ أن رحل أبي إلى معمله البحري في البحار البعيدة ؛ لكي يحقق حلمه بسكّنى البشر في قيعان البحار . . . يبدو أنها كانت منذ شهور تقريبًا » .

التقطت رنا رواية أخيها ، ورسمت على غلافها الفراشة الملكة وحيدة في قلعة الكرتون ؛ تطل من نوافذها دامعة العينين على أرخبيل الفراشات الذي حلّ به الخراب ، ورسمت في صفحاتها الداخلية بحيرة الأحلام التي تتبخّر بفعل حرارة الشمس ، وزهرة اللؤلؤ التي يتثال رحيقها على الأرض وتمتصه التربة الصلصالية الصفراء ، وفراشة الأميرة الحمراء لا تقدر على أن تنال قطرة واحدة منه ، وشبكة الجذور الأفغوانية لشجرة التين البنغالي وهي تلتهم الصلصال المشبع بالرحيق .

كفّت رنا عن تلوين لوحاتها حين سمعت صرير الباب . أخفت الرواية وعُلبّة الألوان تحت المائدة ، وأصابها الارتباك .

دخلت الأم مهرولة وهي تحمل أوراق أشجار متنوعة ؛ بدأ أنها قد خضعت للفحص والتشريح .
رنا الأخوان بأسى إلى أوراق الشجر الصفراء التي برزت عروقها ، والتقطا بضع لُقيّات من الطعام بدون شهية .

لم تقدم الأم أي تفسير لغيابها المفاجئ وحشّتها في وعدّها ، ونظرت بغضب إلى الصحون المملّثة بالطعام ؛ ثم جالت أرجاء الغرفة ببصرها بحثًا عن لُعبة أو كتاب أو كُرّاسة رسم ؛ حتى عثرت على الرواية الملقاة تحت



المائدة ؛ قَلَبَتْ أوراقها بعصبية ، وقرأت بعض كلماتها بغير اكتراث ، وقالت لهما بسخرية :

« الأحلام مفسدة للعقل ، وهي تجعل الإنسان يستغرق في أوهام لا طائل من ورائها ، والنوم الحقيقي هو نوم بلا أحلام ، والإنسان العاقل هو الذي يلجأ إلى العلم لحل مشاكله ، ولو كنتم تتسمان بعقل حصيف لتناولتما طعامكما بدلا من إهدار الوقت في الكتابة والرسم » .

ألقت الأم بالرواية بإهمال على الأرض ، وهمت بمغادرة الغرفة ؛ فأسرع وائل إليها وضمها إلى صدره ، واستوقف أمه قائلاً :

« متى يعود أبي من معمله البحري ؟ » .

أجابت أمه بحزم :

« لا أعلم متى يعود ؛ إنه لم ينتهِ بعد من أبحاثه » .

واستطردت قائلة :

« لم تسأل ؟ ! » .

قال لها وائل بتحدٍ :

« لقد كان أبي يحلم دومًا بالإنسان الذي يستطيع التنفس في الماء مثلما يتنفس في الهواء » .

- لن أهدر وقتي معك في جدل سخيف فالأطفال يجب أن يلتزموا بأوامر آبائهم بدون مناقشة ؛ لأنهم يعرفون صالحهم . سأستكمل أبحاثي الآن ، وسوف أعود بعد قليل ؛ وحينئذ تكونان قد فرغتما من تناول الطعام .

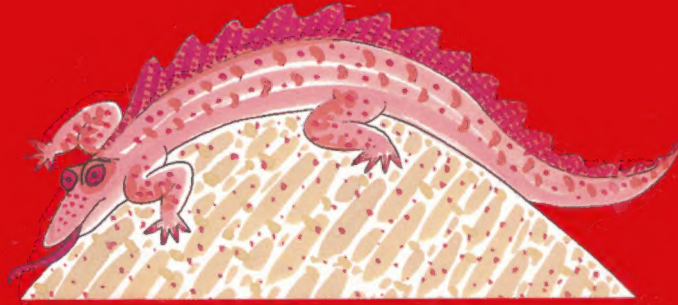
غادرت الأم الغرفة ؛ خطواتها كدبيب أقدام الجنود في عرض عسكري . وغصّ حلق وائل بلقمة حاول أن يتلعبها غصبًا ؛ فلفظها من الفور ، وقال لأخته محفزًا :

« لا بد من أن نعود إلى أرخبيل الفراشات مرة أخرى علّنا نجد زهرة اللؤلؤ ، ونمتصّ رحيقها ، وننام على بتلاتها الدافئة ، وربما نجد أيضًا شجرة يانعة نحتمي بظلالها من وهج الشمس » .

قالت رنا بصوت مرتعش :

« سأكون فراشة مثلك . لن أخذك هذه المرة ، ولن أفترق عنك إلى الأبد » .





((تضرعت "زهرة اللؤلؤ" إلى الفراشات التي تستنرف رحيقها بأن تترك بضع قطرات من الرحيق لفراشة الأميرة الحمراء ، التي كانت تتطلع إليها وهي ترفرف في السماء ، لكن الفراشات لم تعباً بتضرعها والتفت الجذور الخائفة حول أعناق بعضها فلفظت أنفاسها في الحال بينما إكتفت الفراشات الأخريات بما حصلت عليه من رحيق ولاذت بالفرار من الأرخبيل))



دار الشروق

القاهرة ٨٠ شارع سيدييونس المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ج.ب : ٢٣ النصارى - تلفون : ٤٠٢٢٢٩٩ - فاكس : ٤٠٢٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ج.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦٦)